

طه حسين

# الأيام

١



لا يذكر لهذا اليوم اسمًا، ولا يستطيع أن يضعه حيثُ وضعه الله من الشهر والسنة، بل لا يستطيع أن يذكر من هذا اليوم وقتًا بعينه، وإنما يقرب ذلك تقريبًا.

وأكبر ظنّه أنّ هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم في فجره أو في عشاءه. يُرجح ذلك لأنه يذكر أن وجهه تلقى في ذلك الوقت هواءً فيه شيءٌ من البرد الخفيف الذي لم تذهب به حرارة الشمس. ويُرجح ذلك لأنه على جهله حقيقة النور والظلمة، يكاد يذكر أنه تلقى حين خرج من البيت نورًا هادئًا خفيًا لطيفًا كأن الظلمة تَغشى<sup>(١)</sup> بعض حواشيه. ثم يُرجح ذلك لأنه يكاد يذكر أنه حين تلقى هذا الهواء وهذا الضياء لم يُؤنس<sup>(٢)</sup> من حوله حركة يقظة قوية، وإنما آنس حركة مستيقظة من نومٍ أو مقبلًا عليه. وإذا كان قد بقي له من هذا الوقت ذكرى واضحة بيّنة لا سبيل إلى الشك فيها، فإنما هي ذكرى هذا السّياج<sup>(٣)</sup> الذي كان يقوم أمامه من القصب<sup>(٤)</sup>، والذي لم يكن بينه وبين باب الدار إلا خُطواتٌ قصارٌ. هو يذكر هذا السّياج كأنه رآه أمس. يذكر أن قصبَ هذا السّياج كان أطولَ من قامته، فكان من العسير عليه أن يتخطاه إلى ما وراءه. ويذكر أن قصب هذا السّياج كان مقترّبًا كأنما كان متلاصقًا، فلم يكن يستطيع أن ينسل<sup>(٥)</sup> في ثناياه. ويذكر أن قصب هذا السّياج كان يمتدّ من شماله إلى حيث لا يعلم له نهايةً، وكان يمتدّ عن يمينه إلى آخر الدنيا من هذه الناحية. وكان آخر الدنيا من هذه الناحية قريبًا، فقد كانت تنتهي إلى قنّاة عرفها حين تقدّمت به السنُّ، وكان لها في حياته. أو قُل في خياله. تأثيرٌ عظيم.

(١) تغشى: تغطى.

(٢) آنس: أبصر.

(٣) السّياج: ما يحيط بالشيء من خشب أو حديد أو شجر أو بناء.

(٤) القصب هنا: ضرب من النبات ذو كعوب جوفاء، كانت تتخذ منه الأقلام، ينبت على شواطئ الأنهر والترع.

(٥) ينسل هنا: ينفذ. وأثناء الشيء: تضاعفه، الواحد ثنى، بالكسر.

يذكر هذا كله، ويذكر أنه كان يحسد الأرنب التي كانت تخرج من الدار كما يخرج منها، وتتخطى السياج وثبًا من فوق، أو انسيابًا<sup>(٦)</sup> بين قصبه، إلى حيث تقرض<sup>(٧)</sup> ما كان وراءه من نبت أخضر، يذكُر منه الكُرنبَ خاصَّةً.

ثم يذكر أنه كان يحب الخروج من الدار إذا غربت الشمس وتعشى الناس، فيعتمد على قصب هذا السياج، مفكرًا مُغرَقًا في التفكير، حتى يردّه إلى ما حوله صوت الشاعر قد جلس على مسافة من شماله، والتف حوله الناس وأخذ ينشدهم في نغمة عذبة غريبة أخبار أبي زيد وخليفة ودياب، وهم سكوتٌ إلا حين يستخفهم<sup>(٨)</sup> الطربُ أو تستفرهم الشهوة، فيستعيدون ويتمارون<sup>(٩)</sup> ويختصمون، ويسكتُ الشاعر حتى يفرغوا من لَعْطهم<sup>(١٠)</sup> بعد وقتٍ قصيرٍ أو طويل، ثم يستأنف إنشاده العذبِ بِنغمته التي لا تكاد تتغيَّر.

ثم يذكر أنه كان لا يخرج ليلةً إلى موقفه من السياج إلا وفي نفسه حسرةً لاذعةً<sup>(١١)</sup>، لأنه كان يُقدِّر أن سيقطع عليه استماعه لنشيد الشاعر حين تدعوه أخته إلى الدخول فيأبى، فتخرج فتشده من ثوبه فيمتنع عليها، فتحمله بين ذراعيها كأنه الثمامة<sup>(١٢)</sup>، وتعدو<sup>(١٣)</sup> به إلى حيث تُنيمه على الأرض وتضع رأسه على فخذِ أمه، ثم تَعْمِد<sup>(١٤)</sup> هذه إلى عينيهِ المظلمتين فتفتحهما واحدة بعد الأخرى، وتقطرُ فيهما سائلًا يؤذيه ولا يُجدي عليه خيرًا<sup>(١٥)</sup>، وهو يألُم ولكنه لا يشكو ولا يبكي لأنه كان يكره أن يكون كأخته الصغيرة بكاءً شكاءً<sup>(١٦)</sup>.

(٦) الوثب: القفز. والانسياب هنا: الدخول.

(٧) تقرض: تقطع.

(٨) استخفه الأمر: أطربه وحمله على الخفة والجهل. واستفره: استخفه.

(٩) يتمارون: يتجادلون.

(١٠) اللغظ: الصوت والجلبة.

(١١) حسرة: تلهف. ولاذعة: شديدة مؤلمة.

(١٢) الثمام: نبت ضعيف شبيه بالحوص، يضرب به المثل لما هو هين المتناول.

(١٣) تعدو: تجرى.

(١٤) تعمد: تقصد.

(١٥) لا يجدي عليه خيرًا: لا يحدث له خيرًا ولا ينيله.

(١٦) بكاء شكاء: كثير البكاء والشكوى.

ثم يُنقل إلى زاوية في حجرة صغيرة، فتُثيمه أخته على حصيرة قد بُسِطَ عليها لحافٌ، وتُلقي عليه لحافاً آخر، وتدّره وإنّ في نفسه لحسراتٍ، وإنه ليُمدُّ سمعه مدّاً يكاد يخترق به الحائط لعله يستطيع أن يصله بهذه النغمات الخلوة التي يُرددها الشاعر في الهواء الطلق تحت السماء. ثم يأخذه النوم، فما يُحسُّ إلا وقد استيقظ والناس نياماً، ومن حوله إخوته وأخواته يعطون<sup>(١٧)</sup> فيسرفون في العطيط، فيلقى اللحاف عن وجهه في خيفةٍ وترددٍ، لأنه كان يكره أن ينام مكشوف الوجه. وكان واثقاً أنه إن كشف وجهه أثناء الليل أو أخرج أحد أطرافه من اللحاف، فلا بدّ من أن يعبث به عفريةٌ من العفاريث الكثيرة التي كانت تعمُر أقطار البيت<sup>(١٨)</sup> وتملاً أرجاءه ونواحيه، والتي كانت تهبط تحت الأرض ما أضاعت الشمس واضطرب الناس. فإذا أوتت الشمس إلى كهفها، والناس إلى مضاجعهم، وأطفئت السرج، وهدأت الأصوات، صعدت هذه العفاريث من تحت الأرض وملأت الفضاء حركةً واضطراباً وتهامساً وصياحاً.

وكان كثيراً ما يستيقظ فيسمع تجاوب الديكة وتصايح الدجاج، ويجتهد في أن يميّز بين هذه الأصوات المختلفة. فأما بعضها فكانت أصوات ديك حقا، وأما بعضها الآخر فكانت أصوات عفاريث تتشكل بأشكال الديكة وتقلدها عبثاً وكيداً. ولم يكن يحفل بهذه الأصوات ولا يهابها، لأنها كانت تصل إليه من بعيد. إنما كان يخاف الخوف كله أصواتاً أخرى لم يكن يتبينها إلا بمشقةٍ وجهٍ، كانت تتبعث من زوايا الحجرة نحيفةً ضئيلةً، يمثل بعضها أزيز الرجل<sup>(١٩)</sup> يعلو على النار، ويمثل بعضها الآخر حركة متاع خفيف يُنقل من مكان إلى مكان، ويمثل بعضها خشباً ينقصم أو غوداً ينحطم<sup>(٢٠)</sup>.

وكان يخاف أشدّ الخوف أشخاصاً يتمثلها قد وقفت على باب الحجرة فسدت سداً، وأخذت تأتي بحركاتٍ مختلفة أشبه شيء بحركات المتصوفة في حلقات الذكر. وكان يعتقد أن ليس له حصنٌ من كل هذه الأشباح المخوفة والأصوات المنكرة، إلا أن يلتف في لحافه من الرأس إلى القدم، دون أن يدع بينه وبين الهواء منفذاً أو ثغرةً. وكان واثقاً أنه إن ترك ثغرةً في لحافه فلا بدّ من أن تمتدّ منها يد عفريةٍ إلى جسمه فتتاله بالعزم والعبث.

(١٧) غط النائم: فخر وتردد نفسه صاعداً إلى حلقه حتى يسمعه من حوله.

(١٨) أقطار البيت: نواحيه.

(١٩) الرجل: القدر. وأزيره: صوته.

(٢٠) ينقصم وينحطم: ينكسر.

لذلك كان يقضى ليله خائفًا مضطربًا، إلا حين يغلبه النوم، وما كان يغلبه النوم إلا قليلاً. كان يستيقظ مُبكراً أو قُلْ كان يستيقظ في السَّحَر، ويقضى شَطْرًا طويلاً من الليل في هذه الأهوال والأوجال<sup>(٢١)</sup> والخوف من العفاريت، حتى إذا وصلت إلى سمعه أصوات النساء يَعْدُنَ إلى بيوتهنَّ وقد ملأن جِرازهنَّ من القنأة وهنَّ يتغنَّينَ (الله يا ليل الله...)، عَرَفَ أن قد بَزَغَ الفجر، وأن قد هَبَطَتِ العفاريت إلى مستقرَّها من الأرض السُّفلى، فاستحال هو عفرينًا، وأخذ يتحدث إلى نفسه بصوت عال، ويتغنَّى بما حفظ من نشيد الشاعر، وَيَعْمِزُ مَنْ حوله من إخوته وأخواته، حتى يُوقظهم واحدًا واحدًا. فإذا تَمَّ له ذلك، فهناك الصِّيَاح والغناء، وهناك الضَّجيج والعجيج<sup>(٢٢)</sup>، وهناك الضوضاء التي لم يكن يَضَعُ لها حدًّا إلا نُهوُضُ الشيخ من سريره، ودعاؤه بالإبريق ليتوضأ.

حينئذ تخفَّت<sup>(٢٣)</sup> الأصوات وتهدأ الحركة، حتى يتوضأ الشيخ ويصَلِّيَ ويقرأ ورَّده ويشرب قهوته ويمضى إلى عمله. فإذا أغلق الباب من دونه نهضت الجماعة كلها من الفراش، وانسابت<sup>(٢٤)</sup> في البيت صائحةً لاعبةً، حتى تختلط بما في البيت من طير وماشية.

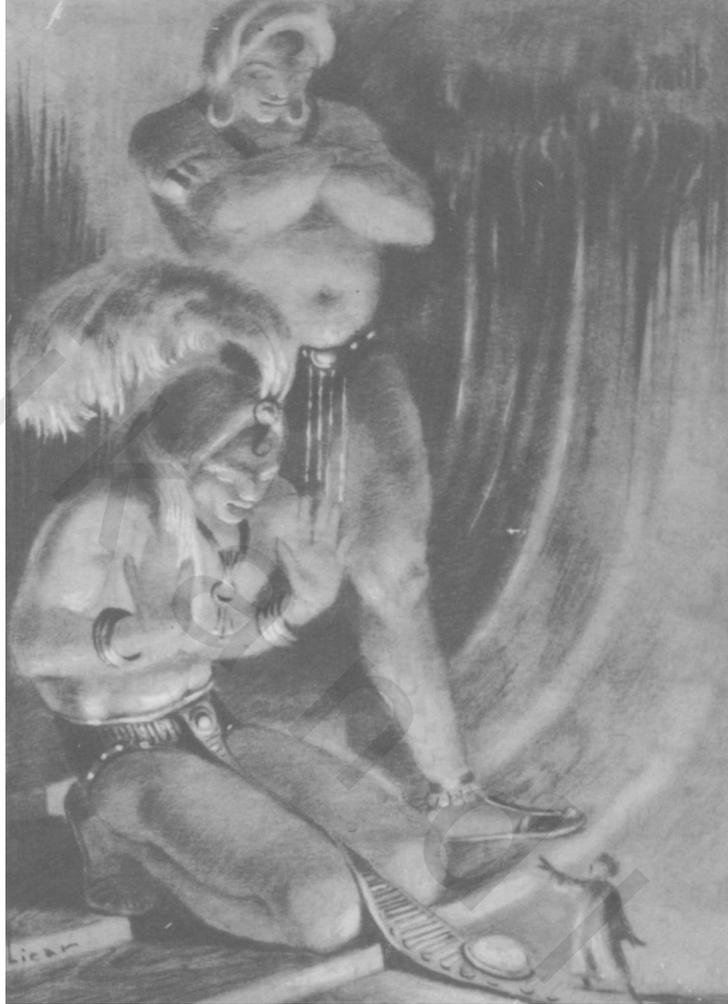


(٢١) الأوجال: المخاوف، الواحد وجل، بالتحريك.

(٢٢) الضجيج والعجيج: الصياح ورفع الصوت.

(٢٣) تخفت الأصوات: تسكن أو تضعف.

(٢٤) انسابت: جرت وجالت.



كان مطمئناً إلى أن الدنيا تنتهي عن يمينه بهذه القناة التي لم يكن بينه وبينها إلا خطوات معدودة. ولم لا؟ وهو لم يكن يرى عَرْضَ هذه القناة، ولم يكن يُقَدِّرُ أن هذا العَرْضُ ضئيلٌ بحيث يستطيع الشابُّ النشيطُ أن يثبَّ من إحدى الحافتين فيبلغ الأخرى، ولم يكن يقدرُ أن حياة الناس والحيوان والنبات تتصل من وراء هذه القناة على نحو ما هي من دونها، ولم يكن يقدرُ أن الرجل يستطيع أن يعبرَ هذه القناة ممتلئاً دون أن يبلغ الماء إبطيه، ولم يكن يقدرُ أن الماء ينقطع من حينٍ إلى حينٍ عن هذه القناة، فإذا هي حفرةٌ مستطيلة يعبث فيها الصبيان، ويبحثون في أرضها الرخوة عما تخلف من صغار السمك فمات لانقطاع الماء عنه.

لم يكن يقدرُ هذا كله، وإنما كان يعلم يقيناً لا يخالطه الظنُّ أن هذه القناة عالمٌ آخرٌ مستقلٌّ عن العالم الذي كان يعيش فيه، عمره كائناتٌ غريبةٌ مختلفة لا تكاد تُحصَى؛ منها التماسيح التي تزدرد<sup>(٢٥)</sup> الناس ازدراداً، ومنها المسحورون الذين يعيشون تحت الماء بياض النهار وسواد الليل، حتى إذا أشرقت الشمس أو غربت طفوا يتنسمون الهواء<sup>(٢٦)</sup>، وهم حين يطفون خطرٌ على الأطفال وفتنةٌ للرجال والنساء. ومنها هذه الأسماك الطوال العراض التي لا تكاد تظفر بطفل حتى تزدرده ازدراداً، والتي قد يتأح<sup>(٢٧)</sup> لبعض الأطفال أن يظفروا في بطونها بخاتم الملك، ذلك الخاتم الذي لا يكاد الإنسان يُديره في أصبعه حتى يسعى إليه دون لَمَحِ البَصَرِ خادمان من الجنِّ يقضيان له ما يشاء. ذلك الخاتم الذي كان يتختمه سليمان فيسخر له الجنَّ والريحَ وما يشاء من قوى الطبيعة. وما كان أحب إليه أن يهبط في هذه القناة لعلَّ سمكةً من هذه الأسماك تزدرده فيظفر في بطنها بهذا الخاتم؛ فقد كانت حاجته إليه شديدة... ألم يكن يطمع على أقلِّ تقدير في أن يحمله أحدُ هذين الخادمين إلى ما وراء هذه القناة ليرى بعض ما هناك من الأعاجيب؟ ولكنه كان يخشى كثيراً من الأهوال قبل أن يصل إلى هذه السمكة المباركة.

(٢٥) تزدرد: تتلج.

(٢٦) طفوا: علوا. وتنسم الهواء: تشمه ووجد نسيمه.

(٢٧) يتأح: يهياً.

على أنه لم يكن يستطيع أن يبلو<sup>(٢٨)</sup> من شاطئ هذه القناة مسافةً بعيدة، فقد كان الشاطئ محفوفاً عن يمينه وعن شماله بالخطر. فأما عن يمينه فقد كان هناك العدويون، وهم قوم من الصعيد يقيمون في دارٍ لهم كبيرة، يقوم على بابها دائماً كلبان عظيمان لا ينقطع نباحهما، ولا تنقطع أحاديث الناس عنهما، ولا ينجو المرء منهما إلا بعد عناءٍ ومَشَقَّةٍ. وأما عن شماله فقد كانت هناك خيامٌ يقيم فيها (سعيد الأعرابي) الذي كان الناس يتحدثون بشره ومكره وحرصه على سفك الدماء، وامرأته (كوابس) التي كانت قد اتخذت في أنفها حلقةً من الذهب كبيرة، والتي كانت تختلف<sup>(٢٩)</sup> إلى الدار، وتقبل صاحبنا من حينٍ إلى حين فيؤذيه خرامها ويروعه<sup>(٣٠)</sup>. وكان أخوفُ الأشياء إليه أن يتقدم عن يمينه فيتعرض لكلبي العدويين، أو يتقدم عن شماله فيتعرض لشرِّ (سعيد) وامرأته (كوابس).

على أنه كان يجد في هذه الدنيا الضيقة القصيرة المحدودة من كل ناحية ضرورياً من اللهو والعبث تملأ نهاره كله.

ولكن ذاكرة الأطفال غريبة، أو قل إن ذاكرة الإنسان غريبة حين تُحاول استعراض حوادث الطفولة، فهي تتمثل بعض هذه الحوادث واضحاً جلياً كأن لم يمض بينها وبينه من الوقت شيء، ثم يمحي منها بعضها الآخر كأن لم يكن بينها وبينه عهد.

يذكر صاحبنا السياج والمزرعة التي كانت تنبسط من ورائه، والقناة التي كانت تنتهي إليها الدنيا، و(سعيداً) و(كوابس) وكلاب العدويين، ولكنه يحاول أن يتذكر مصير هذا كله فلا يظفر من ذلك بشيء. وكأنه قد نام ذات ليلة ثم أفاق من نومه فلم ير سياجاً ولا مزرعة ولا سعيداً ولا كوابس، وإنما رأى مكان السياج والمزرعة بيوتاً قائمة وشوارع منظمة، تتحدر كلها من جسر القناة ممتدة امتداداً قصيراً من الشمال إلى الجنوب. وهو يذكر كثيراً من الذين كانوا يسكنون هذه البيوت رجالاً ونساءً، ومن الأطفال الذين كانوا يعبثون في هذه الشوارع.

وهو يذكر أنه كان يستطيع أن يتقدم يميناً وشمالاً على شاطئ القناة دون أن يخشى كلاب العدويين أو مكر سعيد وامرأته. وهو يذكر أنه كان يقضى ساعاتٍ من نهاره على شاطئ القناة سعيداً مبتهجاً بما سمع من نغمات (حسن) الشاعر يتغنى بشعره في أبي زيد وخليفة ودياب، حين يرفع الماء بشادوفه ليسقي به زرعَه على الشاطئ الآخر للقناة. وهو يذكر أنه

---

(٢٨) يبلو: يختبر.

(٢٩) تختلف إلى الدار: تتردد عليها.

(٣٠) يردعه هنا: يخيفه.

استطاع غير مرّة أن يعبر هذه القناة على كتف أحد إخوته دون أن يحتاج إلى خاتم الملك، وأتته ذهب غير مرّة إلى حيث كانت تقوم وراء القناة شجرات من التوت فأكل من ثوتها ثمراتٍ لذيذة. وهو يذكر أنه تقدّم غير مرّة عن يمينه على شاطئ القناة حتى وصل إلى حديقة المعلم وأكل فيها غير مرّة ثفّاحاً، وقُطِف له فيها غير مرّة نعنّاعٌ ورّيحان. ولكنه عاجزٌ كلّ العجز أن يتذكّر كيف استحالت الحال وتغيّر وجه الأرض من طوره الأول إلى هذا الطور الجديد.

كان سابعَ ثلاثةَ عَشَرَ من أبناء أبيه، وخامسَ أحدَ عشرَ من أشقته. وكان يشعُر بأنَّ له بين هذا العدد الضخم من الشباب والأطفال مكانًا خاصًّا يمتاز من مكان إخوته وأخواته. أكان هذا المكان يُرضيه؟ أكان يُؤذيه؟ الحقُّ أنه لا يتبيَّن ذلك إلا في غموض وإبهام. والحقُّ أنه لا يستطيع الآن أن يحكم في ذلك حكمًا صادقًا. كان يُحسُّ من أمِّه رحمةً ورأفةً، وكان يجد من أبيه لينًا ورَفَقًا، وكان يشعُر من إخوته بشيء من الاحتياط في تحدُّثهم إليه ومعاملتهم له. ولكنَّه كان يجد إلى جانب هذه الرحمة والرأفة من جانب أمِّه شيئًا من الإهمال أحيانًا، ومن الغلظة أحيانًا أخرى. وكان يجد إلى جانب هذا اللين والرفق من أبيه شيئًا من الإهمال أيضًا، والأزورار<sup>(٣١)</sup> من وقت إلى وقت. وكان احتياط إخوته وأخواته يُؤذيه، لأنه كان يجد فيه شيئًا من الإشفاق مشوبًا بشيء من الأزدراء.

على أنه لم يلبث أن تبين سبب هذا كلِّه، فقد أحسَّ أن لغيره من الناس عليه فضلًا، وأنَّ إخوته وأخواته يستطيعون ما لا يستطيع، وينهضون من الأمر لما لا ينهض له. وأحسَّ أن أمِّه تأدُّن لإخوته وأخواته في أشياء تحظرها عليه<sup>(٣٢)</sup>، وكان ذلك يُحفظه. ولكن لم تلبث هذه الحفيظة أن استحالت إلى حزنٍ صامت عميق، ذلك أنه سمع إخوته يصفون ما لا علم له به، فعلم أنَّهم يروُّن ما لا يرى.

(٣١) الأزورار: الإعراض والانحراف.

(٣٢) تحظرها عليه: تحرمها عليه وتمنعه منها. ويحفظه: يغضبه. وما يبقى في نفس المرء من الغيظ والغضب يقال له الحفيظة.

كان من أوّل أمره طُلعَةً<sup>(٣٣)</sup> لا يحفل بما يلقى من الأمر في سبيل أن يستكشف ما لا يعلم. وكان ذلك يكلفه كثيرًا من الألم والعناء. ولكنّ حادثة واحدة حدّت مَيْلِهِ إلى الاستطلاع، وملاّت قلبه حياءً لم يفارقه إلى الآن. كان جالسًا إلى العشاء بين إخوته وأبيه، وكانت أمّه كعادتها تُشرف على حفلة الطعام، تُرشد الخادم وتُرشد أخواته اللّائى كنّ يُشاركن الخادم في القيام بما يحتاج إليه الطامعون. وكان يأكل كما يأكل الناس. ولكن لأمرٍ ما خطر له خاطرٌ غريب! ما الذى يقع لو أنه أخذ اللقمة بكلتا يديه بدل أن يأخذها كعادته بيد واحدة؟ وما الذى يمنعه من هذه التجربة؟ لا شيء. وإذن فقد أخذ اللقمة بكلتا يديه وغمسها من الطَّبَق المشترك ثم رفعها إلى فمه. فأما إخوته فأغرقوا فى الضحك<sup>(٣٤)</sup>. وأما أمّه فأجهشت<sup>(٣٥)</sup> بالبكاء. وأما أبوه فقال فى صوت هادئ حزين: ما هكذا تؤخذ اللقمة يا بُنيّ. وأما هو فلم يعرف كيف قضى ليلته.

من ذاك الوقت تقيّدت حركاته بشيء من الرزانة والإشفاق والحياء لا حدّ له. ومن ذلك الوقت عرّف لنفسه إرادةً قويّة. ومن ذلك الوقت حرّم على نفسه ألوانًا من الطعام لم تُبَح له إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين. حرّم على نفسه الحساء والأرز، وكلّ الألوان التى تُؤكَل بالملاعق، لأنه كان يعرف أنّه لا يُحسنُ اصطناع الملعقة، وكان يكره أن يضحك إخوته، أو تبكى أمّه، أو يُعلّمه أبوه فى هدوء حزين.

هذه الحادثة أعانته على أن يفهم حقًا ما يتحدّث به الرواة عن أبى العلاء من أنه أكل ذات يومٍ دَبَسًا<sup>(٣٦)</sup>، فسقط بعضه على صدره وهو لا يدري، فلما خرج إلى الدّرس قال له بعض تلاميذه: يا سيّدى أكلت دَبَسًا، فأسرع بيده إلى صدره، وقال: نَعَمْ قاتل الله الشّرّة. ثم حرّم الدبس على نفسه طوال الحياة.

وأعانته هذه الحادثة على أن يفهم طَوْرًا من أطوار أبى العلاء حقّ الفهم، ذلك أن أبا العلاء كان يتسّرّ فى أكله حتى على خادمه، فقد كان يأكل فى نَفَق<sup>(٣٧)</sup> تحت الأرض، وكان

(٣٣) طلعة: كثير التطلع. ولا يحفل بالشىء: لا يبالى به.

(٣٤) أغرقوا فى الضحك: بالغوا فيه.

(٣٥) أجهشت بالبكاء: همت به وتهيأت له.

(٣٦) الدبس: عسل التمر وعسل النحل.

(٣٧) النفق: الحفير تحت الأرض.

يأمر خادمه أن يعدَّ له طعامه في هذا النفق ثم يخرج، ويخلو هو إلى طعامه فيأخذ منه ما يشتهى. وقد زعموا أن تلاميذه تذاكروا مرَّةً بطيخ حَلَبَ وجودته، فتكلَّف أبو العلاء وأرسل إلى حلب من اشترى لهم منه شيئاً، فأكلوا واحتفظ الخادم لسيدة بشيء من البطيخ وضعه في النفق، وكأنه لم يضعه في المكان الذي تعود أن يضع فيه طعام الشيخ، وكره الشيخ أن يسأل عن حظه من البطيخ، فلبث البطيخ في مكانه حتى فسد ولم يذقه الشيخ.

فهمَّ صاحبنا هذه الأطوارَ من حياة أبي العلاء حقَّ الفهم، لأنه رأى نفسه فيها. فكَمَّ كان يتمنى طفلاً لو استطاع أن يخلو إلى طعامه، ولكنَّه لم يكن يجزؤُ على أن يُعلِنَ إلى أهله هذه الرغبة. على أنَّه خلا إلى بعض الطعام أحياناً كثيرة، ذلك في شهر رمضان وفي أيام المواسم الحافلة. حين كان أهله يتخذون ألواناً من الطعام حلوةً، ولكنها تُؤكَل بالملاعق؛ فكان يأبى أن يُصيبَ منها على المائدة. وكانت أمُّه تكره له هذا الحرمان، فكانت تُفرد له طبقاً خاصاً وتُخلى بينه وبينه في حُجرة خاصَّة، يُغلقها هو من دونه حتى لا يستطيع أحدٌ أن يُشرف عليه وهو يأكل.

على أنه عندما استطاع أن يملك أمرَ نفسه اتَّخذ هذه الخُطَّة له نظاماً. بدأ بذلك حين سافر إلى أوروبا لأوَّل مرَّة، فتكلَّف التعب وأبى أن يذهب إلى مائدة السفينة، فكان يُحمَلُ إليه الطعامُ في غرفته. ثم وصل إلى فرنسا فكانت قاعدته إذا نزل في فُنْدُقٍ أو في أسرة أن يُحمَلَ إليه الطعامُ في غرفته دون أن يتكلف الذهابَ إلى المائدة العامة. ولم يترك هذه العادة إلا حين خطب قرينته؛ فأخرجته من عادات كثيرة كان قد ألفها.

هذه الحادثة أخذته بألوانٍ من الشدَّة في حياته، جعلته مضربَ المثل في الأسرة وبين الذين عرّفوه حين تجاوز حياة الأسرة إلى الحياة الاجتماعية؛ كان قليلَ الأكل، لا لأنه كان قليلَ الميل إلى الطعام، بل لأنه كان يخشى أن يوصف بالشره أو أن يتغامز عليه إخوته. وقد ألمه ذلك أوَّل الأمر، ولكنه لم يلبث أن تعودَ حتى أصبح من العسير عليه أن يأكل كما يأكل الناس. كان يُسرف في تصغير اللقمة، وكان له عمٌّ يغيظه منه ذلك كلما رآه فيغضب وبنهره<sup>(٣٨)</sup> ويلحُّ عليه في تكبير اللقمة، فيضحك إخوته. وكان ذلك سبباً في أن كره عمه كرهًا شديدًا. كان يستحي أن يشربَ على المائدة مخافة أن يضطرب القدح من يده، أو ألاَّ يُحسِنَ تناوله حين يقدِّم إليه، فكان طعامه جافاً ما جلس على المائدة. حتى إذا نهَض عنها ليغسل يديه من حنفيه كانت هناك شرب من مائها ما شاء الله أن يشرب، ولم يكن هذا الماء نقياً دائماً، ولم يكن هذا النوع من

(٣٨) ينهره: يزره.

رى الظماً ملائماً للصحة، فانتهى به الأمر إلى أن أصبح معمولاً<sup>(٣٩)</sup>، وما استطاع أحد أن يعرف لذلك سبباً.

ثم حرم على نفسه من ألوان اللّعب والعبث كلّ شيء، إلا ما لا يكلفه عناءً ولا يُعرضه للضحك أو الإشفاق. فكان أحبّ اللّعب إليه أن يجمع طائفة من الحديد وينتحي<sup>(٤٠)</sup> بها زاوية من البيت، فيجمعها ويفرقها ويقرع بعضها ببعض. يُنفق في ذلك ساعاتٍ، حتى إذ سئمه وقف على إخوته أو أترابه وهم يلعبون، فشاركهم في اللّعب بعقله لا بيده. وكذلك عرّف أكثر ألوان اللّعب دون أن يأخذ منها بحظ. وانصرافه هذا عن العبث حبّب إليه لونها من ألوان اللّهو؛ هو الاستماع إلى القصص والأحاديث، فكان أحبّ شيء إليه أن يسمع إنشاد الشاعر، أو حديث الرجال إلى أبيه، والنساء إلى أمه. ومن هنا تعلم حسن الاستماع. وكان أبوه وطائفة من أصحابه يُحبّون القصص حبّاً جمّاً، فإذا صلّوا العصر اجتمعوا إلى واحد منهم يتلو عليهم قصص الغزوات والفتوح، وأخبار عنرة والظاهر ببيّرس، وأخبار الأنبياء والنسّاك والصالحين، وكتباً في الوعظ والسُنن. وكان صاحبنا يقعد منهم مزجراً<sup>(٤١)</sup> الكلب وهم عنه غافلون، ولكنه لم يكن غافلاً عمّا يسمع، بل لم يكن غافلاً عما يتركه هذا القصص في نفوس السامعين من الأثر. فإذا غرّبت الشمس تفرّق القوم إلى طعامهم، حتى إذا صلّوا العشاء اجتمعوا فتحدّثوا طرّفاً من الليل، وأقبل الشاعر فأخذ يُنشدّهم أخبار الهاليتين والزنايتين، وصاحبنا جالس يسمع في أوّل الليل كما كان يسمع في آخر النهار.

والنساء في قرى مصر لا يُحبّبن الصمت ولا يملنّ إليه. فإذا خلّت إحداهن إلى نفسها ولم تجد من تتحدّث إليه، تحدّثت إلى نفسها ألواناً من الحديث، فغنت إن كانت فرجةً، وعدّدت<sup>(٤٢)</sup> إن كانت محزونة. وكلّ امرأة في مصر محزونة حين تُريد. وأحبّ شيء إلى نساء القرى إذا خلون إلى أنفسهن أن يذكرنّ الآمهن وموتاهن فيعدّدن، وكثيراً ما ينتهي هذا التعدد إلى البكاء حقّاً. وكان صاحبنا أسعد الناس بالاستماع إلى أخواته وهنّ يتغنّين، وإلى أمه وهي تُعدّد. وكان غناء أخواته يغيظه ولا يترك في نفسه أثراً، لأنه كان يجده سخيلاً لا يدلّ على شيء؛ في حين كان تعدد أمه يهزه هزّاً عنيفاً، وكثيراً ما كان يُكيه. وعلى هذا النحو حفظ صاحبنا كثيراً

(٣٩) معمول: بمعدته داء.

(٤٠) ينتحي: يقصد.

(٤١) أى قريباً منهم. ومزجر الكلب: المكان الذى يزجر فيه. وذلك أن الكلب يكون حول القوم عند الطعام فينبهونه بالصوت ليبعد عنهم.

(٤٢) التعدد: ذكر محاسن الميت. والمراد هنا: ما تلهج به المرأة من بكاء موتاها أو ذكر أشجانها.

من الأغاني، وكثيراً من التعديد، وكثيراً من جدّ القصص وهزله، وحفظ شيئاً آخر لم تكن بينه وبين هذا كله صلة؛ وهى الأوراد التى كان يتلوها جدّه الشيخ الضرير إذا أصبح أو أمسى.

كان جدّه هذا ثقيلَ الظلِّ بغيضاً إليه، وكان يقضى فى البيت فصلَ الشتاء من كلِّ سنة، وكان قد صلّح ونسك حين اضطرته الحياة إلى الصّلاح والنسك، فكان يصلّى الخمس لأوقاتها، ولم يكن لسائنه يفتر عن ذكر الله. وكان يستيقظ آخر الليل ليقراً (ورد السحر). وكان ينام فى ساعة متأخرة بعد أن يصلى العشاء ويقراً ألواناً من الأوراد والأدعية. وكان صاحبنا ينام فى حُجرة مجاورةٍ لحجرة هذا الشيخ، فكان يسمعه وهو يتلو، وكان يحفظ ما يتلو حتى حفظ من هذه الأوراد والأدعية شيئاً كثيراً. وكان أهل القرية يحبّون التصوّف ويقيمون الأذكار، وكان صاحبنا يحب منهم ذلك، لأنه كان يلهو بهذا الذكر، وبما ينشده المنشدون أثناءه. ولم يبلغ التاسعة من عمره حتى كان قد وعى من الأغاني والتعديد والقصص وشعر الهالبيين والزناتيين والأوراد والأدعية وأناشيد الصوفية جملةً سالحة. وحفظ إلى ذلك كله القرآن.

ولكنه لا يعرف كيف حفظ القرآن، ولا يذكر كيف بدأه، ولا كيف أعاده، وإن كان يذكر من حياته في الكتاب مواقف كثيرة، منها ما يضحك الآن، ومنها ما يحزنه. يذكر أوقاتاً كان يذهب فيها إلى الكتاب محمولاً على كتف أحد أخويه، لأن الكتاب كان بعيداً، ولأنه كان أضعف من أن يقطع ماشياً تلك المسافة. ثم لا يذكر متى بدأ يسعى إلى الكتاب. ويرى نفسه في ضحى يوم جالساً على الأرض بين يدي (سيدنا) ومن حوله طائفة من النعال؛ كان يعبت ببعضها، وهو يذكر ما كان قد ألصق بها من الرقع. وكان (سيدنا) جالساً على دكة<sup>(٤٣)</sup> من الخشب صغيرة ليست بالعالية ولا بالمنخفضة؛ قد وضعت على يمين الداخل من باب الكتاب بحيث يمر كل داخل (سيدنا). وكان (سيدنا) قد تعود متى دخل الكتاب أن يخلع عبايته، أو بعبارة أدق (دقيته) ويلفها لفاً يجعلها في شكل المخذة ويضعها عن يمينه، ثم يخلع نعله ويتربع على دكته، ويثعل سيارته، ويبدأ في نداء الأسماء. وكان (سيدنا) لا يعفى نعليه إلا إذا لم يجد من ذلك بدءاً. كان يرقعها من اليمين ومن الشمال ومن فوق ومن تحت. وكان إذا أخلت به إحدى نعليه دعا أحد صبيان الكتاب وأخذ النعل بيده وقال له: تذهب إلى (الحزين) وهو هنا قريب، فتقول له: (يقول لك سيدنا إن هذه النعل في حاجة إلى لوزة من الناحية اليمنى). انظر أترى؟ هنا حيث أضع أصبعي، فيقول لك (الحزين): (نعم سأضع هذه اللوزة). فتقول له: (يقول لك سيدنا: يجب أن تتخير الجلد متيناً غليظاً جديداً، وأن تحسن الرقع بحيث لا يظهر، أو بحيث لا يكاد يظهر). فيقول لك: (نعم سأفعل هذا). فتقول له: (ويقول لك سيدنا: إنه عميلك منذ زمن طويل، فاستوص بالأجر خيراً). ومهما يقل لك فلا تقبل منه أكثر من قرش، ثم عد إلى مسافة ما أغمض عيني ثم أفتحها. وينطلق الصبي ويلهو عنه سيدنا، ثم يعود وقد أغمض سيدنا عينه وفتحها مرةً ومرةً ومرات.

على أن الرجل كان يستطيع أن يغمض عينه ويفتحها دون أن يرى أو يكاد يرى شيئاً، فقد كان ضريراً إلا بصيصاً ضئيلاً جداً من النور في إحدى عينيه، يُمثل له الأشباح دون أن يُمكنه أن يميزها. وكان الرجل سعيداً بهذا البصيص الضئيل، وكان يخدع نفسه ويظن أنه من المبصرين. ولكن ذلك لم يكن يمنعه من أن يعتمد في طريقه إلى الكتاب وإلى

(٤٣) تطلق الدكة في مصر على سرير من الخشب يجلس عليه، له في جوانبه العليا ما عدا مقدمه سياج. وأصل الدكة (بفتح الدال): بناء يسطح أعلاه ويجلس عليه. فأطلقها المصريون على هذا السرير، ولكنهم يكسرون الدال.



البيت على اثنين من تلاميذه، يبسط ذراعيه على كَتَفَي كُلِّ واحد منهما، ويمشى الثلاثة في الطريق هكذا! قد أخذوها على المارّة، حتى إنهم ليتنحّون لهم عنها.

وكان منظر سيّدنا عجباً في طريقه إلى الكُتّاب وإلى البيت صباحاً ومساءً. كان ضخماً بادناً وكانت دِفْيَتُهُ تزيد في ضخامته، وكان كما قدّمنا يبسط ذراعيه على كتفي رفيقيه. وكانوا ثلاثتهم يمشون وإنهم ليضربون الأرض بأقدامهم ضرباً. وكان سيّدنا يتخيّر من تلاميذه لهذه المِهْمَة أنجبهم وأحسنهم صوتاً؛ ذلك أنه كان يحبّ الغناء، وكان يحبّ أن يعلّم تلاميذه الغناء، وكان يتخيّر الطريق لهذا الدرس. فكان يُعَنِّي ويأخذ رفيقيه بمصاحبته حيناً، والاستماع له حيناً آخر، أو يأخذ واحداً منهما بالغناء على أن يصاحبه هو والرفيق الآخر. وكان سيّدنا لا يُعَنِّي بصوته ولسانه وحدهما، وإنما يُعَنِّي برأسه وبدنّه أيضاً، فكان رأسه يهبط ويصعد، وكان رأسه يلتفت يميناً وشمالاً. وكان سيّدنا يُعَنِّي بيديه أيضاً.

وكان سيّدنا يُعجبه (الدور) أحياناً؛ ويرى أن المشى لا يلائمه فيقف حتى يُتِمّه. وأبدع من هذا كله أن سيّدنا كان يرى صوته جميلاً. وما يظنّ صاحبنا أن الله خلق صوتاً أقبح من صوته. وما قرأ صاحبنا قول الله عز وجل: "إن أنكر الأصوات لصوت الحمير" إلا ذكر سيّدنا وهو يُوقِع أبياتاً من (البردة) في طريقه إلى الجامع منطلقاً لصلاة الظهر، أو في طريقه إلى البيت منصرفاً من الكُتّاب.

يرى صاحبنا نفسه كما قدّمنا، جالساً على الأرض يعبث بالنعال من حوله، وسيّدنا يقرئه سورة الرحمن، ولكنه لا يذكر أكان يقرؤها بادناً أم معيداً.

وكانه يرى نفسه مرّةً أخرى جالساً لا على الأرض ولا بين النعال، بل على يمين سيّدنا على دكة أخرى طويلة، وسيّدنا يقرئه: "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون". وأكبرُ ظنه أنه كان قد أتم القرآن بدءاً وأخذ يعيده. وليس غريباً أن ينسى صاحبنا كيف حفظ القرآن، فقد أتمّ حفظه ولما يُتمّ التاسعة من عمره. وهو يذكر في وضوح وجلاء ذلك اليوم الذي ختم فيه القرآن، ذلك أن سيّدنا كان يتحدث إليه قبل هذا اليوم بأيام عن ختم القرآن، وعن أن أباه سيبتهج به. وكان يضع لذلك شروطاً وبطالِبَ بحقوقه. ألم يكن قد علّم قبل صاحبنا أربعة من إخوته ذهب واحد منهم إلى الأزهر، والآخرين إلى المدارس، وصاحبنا هو الخامس.. فكم لسيّدنا على الأسرة من حقوق! وحقوق سيّدنا على الأسرة كانت تتمثل دائماً طعاماً وشراباً وثياباً ومالاً. فأما الحقوق التي كان يقتضيها إذا ختم صاحبنا القرآن فعشوة دسمة قبل كل شيء، ثم جبة وقفطان وزوج من الأحذية وطربوش مغربي وطاقيّة من القماش الذي تتخذ منه العمائم

وجنيه أحمر، لا يرضى بشيء دون ذلك. فإذا لم يؤد إليه هذا كله فهو لا يعرف الأسرة، ولا يقبل منها شيئاً، ولا صلة بينه وبينها. وهو يقسم على ذلك بمحرجات الأيمان<sup>(٤٤)</sup>. وكان هذا اليوم يوم أربعاء. وكان سيدنا قد أنبأ في الصباح بأن صاحبنا سيختم القرآن في هذا اليوم. وأقبلوا في العصر؛ يمشى سيدنا معتمداً على رفيقيه، ويمشى صاحبنا من ورائه يقوده يتيم من أيتام القرية. حتى إذا بلغوا البيت دفع سيدنا الباب دفعاً، وصاح صيحته المعتادة: (يا ستار) واتجه إلى المنطرة فإذا فيها الشيخ قد انفتل<sup>(٤٥)</sup> من صلاة العصر وهو يقرأ شيئاً من الأدعية كعادته، فاستقبلهم مبتسماً مطمئناً، وكان صوته هادئاً، وكان صوت سيدنا عالياً، وكان صاحبنا لا يقول شيئاً، وكان اليتيم مبتهجاً. أجلس الشيخ سيدنا ورفيقه، ووضع في يد اليتيم قطعة من فضة، ودعا الخادم وأمره أن يأخذ هذا اليتيم إلى حيث يصيب شيئاً من الطعام، ومسح على رأس ابنه وقال: (فتح الله عليك، انصرف إلى أمك، وقل لها إن سيدنا هنا).

وكانت أمه قد سمعت صوت سيدنا، وكانت قد أعدت له ما لا بد منه في مثل هذا الوقت، وهو كوز ضخم طويل من السكر المذاب لا شيء عليه. أخرج إلى سيدنا هذا الكوز فعبه عباً، وشرب رفيقاه كوبيين من السكر المذاب أيضاً. ثم أخرجت القهوة فشربها سيدنا مع الشيخ. وكان سيدنا يلح على الشيخ أن يمتحن الصبي فيما حفظ من القرآن، وكان الشيخ يجيب: (دعه يلعب إنه صغير). ثم نهض سيدنا لينصرف، فقال له الشيخ: (نصلي المغرب معاً إن شاء الله). وكانت هذه هي الدعوة إلى العشاء. وما أحسب أن سيدنا نال شيئاً آخر أجراً على ختم صاحبنا للقرآن، فقد كان يعرف الأسرة منذ عشرين سنة، وكان له فيها عادات غير مقطوعة، وكانت الكلفة بينه وبينها مرفوعة، وكان واثقاً أن الحظ إن يخطئه معها هذه المرة فلن يخطئه مرة أخرى.



(٤٤) محرجات الأيمان: الأيمان المغلظة التي توقع في الحرج، وهو الإثم.

(٤٥) انفتل: انصرف.

مُنذ هذا اليوم أصبح صبينا شيخًا وإن لم يتجاوز التاسعة لأنه حفظ القرآن، ومن حفظ القرآن فهو شيخ مهما تكن سنّه. دعاه أبوه شيخًا، ودعته أمه شيخًا، وتعوّد سيّدنا أن يدعو شيخًا أمام أبيه، أو حين يرضى عنه، أو حين يريد أن يترضاه لأمر من الأمور. فأما فيما عدا ذلك فقد كان يدعو باسمه، وربما دعاه (بالواد). وكان شيخنا الصبي قصيرًا نحيفًا شاحبًا زرى الهيئة<sup>(٤٦)</sup> على نحو ما، ليس له من وقار الشيخ ولا من حسن طلعتهم حظّ قليل أو كثير. وكان أبواه يكتفيان من تمجيده وتكبيره بهذا اللفظ الذى أضافاه إلى اسمه كبرًا منهما وعجبًا لا تطفأ به ولا تحببًا إليه. أما هو فقد أعجبه هذا اللفظ فى أول الأمر، ولكنه كان ينتظر شيئًا آخر من مظاهر المكافأة والتشجيع. كان ينتظر أن يكون شيخًا حقًا، فيتخذ العمّة ويلبس الجبّة والقفطان. وكان من العسير إقناعه بأنه أصغر من أن يحمل العمّة ومن أن يدخل فى القفطان... وكيف السبيل إلى إقناعه بذلك وهو شيخ قد حفظ القرآن؟! وكيف يكون الصغير شيخًا؟! وكيف يكون من حفظ القرآن صغيرًا؟! هو إذن مظلوم... وأى ظلم أشد من أن يحال بينه وبين حقّه فى العمّة والجبّة والقفطان!؟

وما هى إلا أيام حتى سئم لقب الشيخ، وكره أن يدعى به، وأحس أن الحياة مملوءة بالظلم والكذب، وأن الإنسان يظلمه حتى أبوه، وأن الأبوة والأمومة لا تعصم الأب والأم من الكذب والعبث والخداع.

ثم لم يلبث شعوره هذا أن استحال إلى ازدراء<sup>(٤٧)</sup> للقب الشيخ، وإحساس بما كان يملأ نفس أبيه وأمه من الغرور والعجب. ثم لم يلبث أن نسى هذا كله فيما نسى من الأشياء.

على أنه فى حقيقة الأمر لم يكن خليفًا أن يدعى شيخًا، وإنما كان خليفًا رغم حفظه للقرآن أن يذهب إلى الكتاب كما كان يذهب مهمل الهيئة، على رأسه طاقيته التى تنظف يوما فى الأسبوع، وفى رجليه حذاء يجدّ مرة فى السنة، ولا يدعه حتى لا يحتمل شيئًا، فإذا تركه فليمش حافيًا أسبوعًا أو أسابيع حتى يأذن الله له بحذاء جديد. كان خليفًا بهذا كله؛ لأن حفظه للقرآن لم يدم طويلًا... أكان وحده ملومًا فى ذلك؟ أم كان اللوم مشتركًا بينه وبين سيّدنا؟ الحق أن سيّدنا أهمله حيناً وعنى بغيره من الذين لم يهتموا بالقرآن. أهمله ليسترىح، وأهمله لأنه لم يتقاض أجرًا على ختمه للقرآن. واستراح صاحبنا إلى هذا الإهمال، وأخذ يذهب إلى الكتاب يقضى فيه طوال

(٤٦) زرى الهيئة: حقيرها.

(٤٧) استحال إلى كذا: تحول وصار. وازدراء: احتقار.

النهار فى راحة مطلقة، ولعب متصل، ينتظر أن تنتهى السنة ويأتى أخوه الأزهرى من القاهرة، حتى إذا انتهت الإجازة وعاد إلى القاهرة، اصطحبه ليصبح شيخاً حقا، وليجاور فى الأزهر.

ومضى على هذا شهر وشهر وشهر. يذهب صاحبنا إلى الكتّاب ويعود منه فى غير عمل، وهو واثق بأنه قد حفظ القرآن، وسيّدنا مطمئن إلى أنه حفظ القرآن، إلى أن كان اليوم المشئوم. كان هذا اليوم مشئوماً حقاً، ذاق فيه صاحبنا لأول مرة مرارة الخزي والذلة والضعفة وكره الحياة. عاد من الكتّاب عصر ذلك اليوم مطمئناً راضياً، ولم يكد يدخل الدار حتى دعاه أبوه بلقب الشيخ، فأقبل عليه ومعه صديقان له. فتلقاه أبوه مبتهجا، وأجلسه فى رفق، وسأله أسئلة عادية، ثم طلب إليه أن يقرأ (سورة الشعراء). وما هى إلا أن وقع عليه هذا السؤال وقع الصاعقة، ففكر وقدّر، وتحفّز<sup>(٤٨)</sup> واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وسمّى الله الرحمن الرحيم. ولكنه لم يذكر من سورة الشعراء إلا أنها إحدى سور ثلاث، أولها (طسّ)، فأخذ يردّد (طسّ) مرة ومرة ومرة، دون أن يستطيع الانتقال إلى ما بعدها. وفتح عليه أبوه بما يلى هذه الكلمة من سورة الشعراء، فلم يستطع أن يتقدم خطوة. قال أبوه: فاقراً سورة النمل. فذكر أن أول سورة النمل، كأول سورة الشعراء (طسّ) وأخذ يردد هذا اللفظ، وفتح عليه أبوه، فلم يستطع أن يتقدم خطوة أخرى. قال أبوه: فاقراً سورة القصص، فذكر أنها الثالثة، وأخذ يردّد (طسّ) ولم يفتح عليه أبوه هذه المرة، ولكنه قال له فى هدوء: قم، فقد كنت أحسب أنك حفظت القرآن. قام خجلاً يتصبب عرقاً، وأخذ الرجلان يعتذران عنه بالخجل وصغر السن، ولكنه مضى لا يدرى أيلوم نفسه لأنه نسى القرآن، أم يلموم سيّدنا لأنه أهمله، أم يلموم أباه لأنه امتحنه؟

ومهما يكن من شىء، فقد أمسى هذا اليوم شرّاً مساءً، ولم يظهر على مائدة العشاء، ولم يسأل عنه أبوه، ودعته أمه فى إعراض إلى أن يتعشى معها، فأبى. فانصرفت عنه ونام. ولكن هذا المساء المنكر كان فى جملة خيراً من الغد. ذهب إلى الكتّاب، فإذا سيّدنا يدعوه فى جفوة: (ماذا حصل بالأمس؟ وكيف عجزت عن أن تقرأ سورة الشعراء؟ وهل نسيتها حقا؟ اتلها على!).

فأخذ صاحبنا يردد (طسّ). وكانت له مع سيّدنا قصة كقصته مع أبيه. قال سيّدنا: عوضنى الله خيرا فيما أنفقت معك من وقت، وما بذلت فى تعليمك من جهد، فقد نسيت القرآن ويجب أن تعيده. ولكن الذنب ليس عليك ولا على، وإنما هو على أبيك؛ فلو أنه أعطانى أجرى يوم ختمت القرآن لبارك الله له فى حفظك، ولكنه منعنى حقى فمحا الله القرآن من صدرك.

(٤٨) تحفّز: انتصب فى قعدته غير مطمئن، أو استوى جالساً على وركيه.

ثم بدأ يقرئه القرآن من أوله، شأنه مع من لم يكن شيخًا ولا حافظًا.



وليس من شك في أنه حفظ القرآن بعد ذلك حفظاً جيداً في مدة قصيرة جداً. فهو يذكر أنه عاد من الكتّاب ذات يوم مع سيّدنا، وكان سيّدنا في هذا اليوم حريصاً على أن يعود معه، حتى إذا وصلا إلى الدار عطف عليها سيّدنا فدفع الباب فاندفع له، وصاح صيحته المألوفة: يا ستار! وكان الشيخ كعادته في المنظرة قد فرغ من صلاة العصر: فلما استقر سيّدنا في مجلسه، قال للشيخ:

(زعمت أن ابنك قد نسى القرآن، ولمنتى في ذلك لوماً شديداً، وأقسمت لك أنه لم ينس وإنما خجل، فكذبتني وعبثت بلحيتي هذه، وقد جئت اليوم لتمتحن ابنك أمامي، وأنا أقسم: (لئن ظهر أنه لا يحفظ القرآن، لأحلقن لحيتي هذه ولأصبحن معرّة الفقهاء في هذا البلد).

قال الشيخ (هون عليك! وما لك لا تقول: إنه نسى القرآن ثم أقرأته إياه مرة أخرى)؟ قال: (أقسم بالله ثلاثاً ما نسيه ولا أقرأته، وإنما استمعت له القرآن، فتلاه على كالماء الجارى، لم يقف ولم يتردد).

وكان صاحبنا يسمع هذا الحوار<sup>(٤٩)</sup>، وكان مقتنعاً أن أباه محقّ وأن سيّدنا كاذب، ولكنه لم يقل شيئاً، ولبث منتظراً الامتحان.

وكان الامتحان عسيراً شاقاً، ولكن صاحبنا كان في هذا اليوم نجيباً بارعاً، لم يُسأل عن شيء إلا أجاب في غير تردد وقرأ في إسراع، حتى كان الشيخ يقول له: (على مهلك فإن الكر في القرآن خطيئة). حتى إذا أتم الامتحان قال له أبوه: (فتح الله عليك، اذهب إلى أمك فقل لها إنك حفظت القرآن حقاً). ذهب إلى أمه ولكنه لم يقل لها شيئاً ولم تسأله عن شيء. وخرج سيّدنا في ذلك اليوم، ومعه جبة من الجوخ خلعها عليه الشيخ.

(٤٩) الحوار: المراجعة.

وأقبل سيّدنا إلى الكتّاب من الغد مسروراً مبتهجا، فدعا الشيخ الصبي بلقب الشيخ هذه المرّة قائلاً: أمّا اليوم، فأنت تستحق أن تدعى شيخاً، فقد رفعت رأسى وبيضت وجهى وشرفت لحيتى أمس، واضطر أبوك إلى أن يعطينى الجبّة. ولقد كنت تتلو القرآن أمس كسلاسل الذهب، وكنت على النار مخافة أن تزلّ<sup>(٥٠)</sup> أو تتحرف، وكنت أحصنك بالحي القيوم الذى لا ينام؛ حتى انتهى هذا الامتحان. وأنا أعفك اليوم من القراءة، ولكن أريد أن آخذ عليك عهداً، فعندى بأن تكون وفيّاً. قال الصبي فى استحياء<sup>(٥١)</sup>: لك على الوفاء. قال سيّدنا: فأعطنى يدك. وأخذ بيد الصبي. فما راع<sup>(٥٢)</sup> الصبي إلا شىء فى يده غريب، ما أحس مثله قط، عريض يترجرج<sup>(٥٣)</sup>، ملؤه شعر تغور فيه الأصابع، ذلك أن سيّدنا قد وضع يد الصبي على لحيته وقال: هذه لحيتى أسلمك إيّاها، وأريد ألاّ تهينها، فقل: (والله العظيم) ثلاثاً (وحق القرآن المجيد لا أهينها). وأقسم الصبي كما أراد سيّدنا. حتى إذا فرغ من قسمه؛ قال له سيّدنا: كم فى القرآن من جزء؟ قال: ثلاثون. قال سيّدنا:

وكم نشغل فى الكتّاب من يوم؟ قال الصبي: خمسة أيام. قال سيّدنا: فإذا أردت أن تقرّ القرآن مرة فى كل أسبوع، فكم تقرّ من جزء كل يوم؟ فكر الصبي قليلاً ثم قال: ستة أجزاء. قال سيّدنا: فتقسم لتتلوّ على العريف ستة أجزاء من القرآن فى كل يوم من أيام العمل، ولتكوننّ هذه التلاوة أول ما تأتى به حين تصل إلى الكتّاب. فإذا فرغت منها فلا جناح<sup>(٥٤)</sup> عليك أن تلهو وتلعب، على ألاّ تصرف الصبيان عن أعمالهم.. أعطى الصبي على نفسه هذا العهد. ودعا سيّدنا العريف فأخذ عليه عهداً مثله، ليسمعنّ للصبي فى كل يوم ستة أجزاء من القرآن، وأودعه شرفه، وكرامة لحيته، ومكانة الكتّاب فى البلد، وقبل العريف الوديعه. وانتهى هذا المنظر وصبيان الكتّاب ينظرون ويعجبون.

(٥٠) يزل هنا: يغلط. ويقال: زل عن الصخرة ونحوها؛ إذ زلق عنها وسقط، وعن الصواب فى منطق، إذا انحرف.

(٥١) فى استحياء: فى خجل.

(٥٢) ما راعنى إلا كذا: أى ما شعرت إلا به.

(٥٣) يترجرج: يضطرب.

(٥٤) الجناح (بضم الجيم): الإثم.

من ذلك اليوم انقطعت صلة الصبي التعليمية (بسيّدنا)، واتصلت بالعريف. ولم يكن العريف أقل غرابة من سيّدنا. كان شاباً طويلاً نحيفاً أسود فاحماً، أبوه سوداني، وأمه مولّدة، وكان سيئ الحظ، لم يوفق في حياته إلى خير. جرب الأعمال كلها فلم يفلح في شيء منها. أرسله أبوه عند كثير من الصناعات ليتعلم صنعة فلم يفلح. وحاول أن يجد له في معمل السكر شغل العامل أو الخفير أو البواب أو الخادم، فلم يفلح في شيء من هذا. وكان أبوه ضيق الصدر به، يمقته ويزدرية، ويؤثر<sup>(٥٥)</sup> عليه إخوته الذين يعملون جميعاً ويكسبون. وكان قد ذهب إلى الكتّاب في صباه فتعلم القراءة والكتابة، وحفظ سوراً من القرآن لم يلبث أن نسيها. فلما ضاقت به الحياة وضاق بها أقبل إلى سيّدنا فشكا إليه أمره، قال له سيّدنا: فتعال هنا فكن عريفاً. عليك أن تعلم الصبيان القراءة والكتابة وتلاحظهم وتمنعهم من العبث، وتقوم مقامى متى غبت، وعلى أن أقرئهم القرآن وأحفظهم إيّاه. وعليك أن تفتح الكتّاب قبل أن تطلع الشمس، وتشرف على تنظيفه قبل أن يحضر الصبيان، وعليك أن تغلق الكتّاب متى صليت العصر، وتأخذ مفتاحه، وعليك مع هذا كله؛ أن تكون يدي اليمنى. ولك ربع ما يأتي به الكتّاب من نقد، تفتضى ذلك في كل أسبوع أو في كل شهر. وتم هذا العقد بين الرجلين وقرأ عليه الفاتحة، وبدأ العريف عمله.

وكان العريف يبغض سيّدنا بغضاً شديداً ويزدرية، ولكنه يصانعه<sup>(٥٦)</sup>. وكان سيّدنا يكره العريف كرهاً عنيفاً ويحتقره، ولكنه يتملقه.

فأما العريف فكان يكره سيّدنا؛ لأنه أثر<sup>(٥٧)</sup> غشاش كذاب، يخفى عليه بعض موارد الكتّاب، ويستأثر<sup>(٥٨)</sup> بخير ما يحمل الصبيان معهم من طعام. ويزدرية؛ لأنه كان ضريراً يتكلف الإبصار، وكان قبيح الصوت، يتكلف حسن الصوت. وأما سيّدنا فكان يكره العريف؛ لأنه مكار داهية، ولأنه يخفى عليه كثيراً مما ينبغي أن يعلمه، ولأنه سارق؛ يسرق ما يوضع بين يديهما من الطعام وقت الغداء، ويختلس أطايبه، ولأنه يأتّم<sup>(٥٩)</sup> مع كبار الصبيان في الكتّاب، ويعبث

(٥٥) يؤثر عليه إخوته: يفضلهم عليه.

(٥٦) يصانعه: يلاينه ويداريه.

(٥٧) أثر: يؤثر نفسه بالخير.

(٥٨) استأثر بالشيء: استبد به وخص به نفسه.

(٥٩) يأتّم معهم هنا: يتشاور معهم على عمل شيء.

معهم على غفلة منه، فإذا صليت العصر وأغلق الكتاب كان بينه وبينهم مواعيد هناك عند شجر التوت، أو عند (القنطرة) أو فى (معمل السكر).

ومن غريب الأمر أن الرجلين كانا صادقين مصيبين، وأنهما كانا مضطرين إلى أن يتعاونوا على كره ومضض<sup>(٦٠)</sup>؛ أحدهما محتاج إلى أن يعيش، والآخر محتاج إلى من يدبر له أمور الكتاب.

اتصل صبينا بالعريف، وأخذ يتلو القرآن بين يديه، ستة أجزاء فى كل يوم. ولكن ذلك لم يستمر ثلاثة أيام، ضاق الصبى بهذه التلاوة منذ اليوم الأول، وضاق العريف بها منذ اليوم الثانى، وتكاشفا<sup>(٦١)</sup> بهذا الضيق فى اليوم الثالث، وانفقا منذ اليوم الرابع على أن يتلو الصبى فى سرّه، ستة أجزاء بين يدي العريف، حتى إذا أحس اضطراباً، أو غاب عنه لفظ، سأل عنه العريف. وأخذ الصبى يأتى فى كل يوم، فيسلم على العريف، ويجلس على الأرض بين يديه، ويحرك شفثيه مهمهما<sup>(٦٢)</sup> كأنه يقرأ القرآن، ويسأل العريف من حين إلى حين عن كلمة، فيجيبه مرة، ويتناقل عنه مرة أخرى. ويأتى سيدنا فى كل يوم قبيل الظهر؛ فإذا سلم وجلس، كان أول عمل يأتية أن يدعو الصبى فيسأله: أقرأت؟ نعم. من أين إلى أين؟ وكان الصبى يجيب: من (البقرة) إلى (لتجدن) فى يوم السبت، ومن (لتجدن) إلى (وما أبرئ) فى يوم الأحد.. وكذلك قسم القرآن ستة أقسام اصطلاح عليها الفقهاء، وخص لكل يوم من الأيام الخمسة، قسماً من هذه الأقسام يخبر به سيدنا متى سأله.

ولكن العريف لم يكن ليكتفى بهذا الاتفاق الذى يريحه ويريح الصبى، وإنما كان يطمع فى أن يستفيد من موقف الصبى بين يديه، وكان ينذر الصبى من حين إلى حين، بأنه سيخبر سيدنا أنه قد وجد بعض السور (متععة) عند الصبى: (سورة هود)، أو (سورة الأنبياء)، أو (سورة الأحزاب)، وإذا كان القرآن كله (متععا) (سيئ الحفظ) عند الصبى، لأنه أهمل قراءته منذ أشهر، فقد كان يكره أن يمتحنه سيدنا، ويشترى صمت العريف بكل شىء. وكم دفع إلى العريف ما كان يملأ جيبه من خبز، أو فطير، أو تمر... وكم دفع إليه هذا القرش الذى كان يعطيه إياه أبوه من حين إلى حين، والذى كان يريد أن يشتري به أقراص النعناع. وكم احتال على أمه، ليأخذ منها قطعة ضخمة من السكر، حتى إذا وصل إلى الكتاب دفعها إلى العريف، وأنه ليشتئها كلها أو

(٦٠) المضض: الألم.

(٦١) تكاشفا: كشف كل منهما للآخر ما فى نفسه.

(٦٢) المهمة: الكلام الخفى.

بعضها، فيأخذها العريف ويدعو بالماء يغمس فيه السكر، ثم يمصه مصاً شديداً، ثم يزدرد السكر وقد ذاب أو كاد... وكم نزل عن طعامه الذي كان يحمل إليه من البيت ظهر كل يوم، وإنه لشديد الجوع، ليأكل العريف مكانه؛ ولا يخبر سيّدنا بأن القرآن عنده متمتع.

على أن هذه الصّلات المستمرة لم تلبث أن ضمنت له مودة العريف، فقد اتخذ العريف صديقاً، وأخذ يصطحبه إلى الجامع بعد الغداء ليصلى معه الظهر، ثم أخذ يعتمد عليه، ويثق به، ويطلب إليه أن يُقرئ القرآن بعض الصبيان، أو يسمعه من بعض الذين أخذوا يعيدون ويحفظون. وهنا كان صاحبنا يسلك مع تلاميذه مسلك العريف معه بالدقة، كان يُجلس الصبيان بين يديه، ويأخذهم بالتلاوة ثم يتشاغل عنهم بالحديث مع أترابه، حتى إذا فرغ من حديثه، التفت إليهم، فإذا آنس منهم عبثاً أو إبطاءً أو اضطراباً، فالنذير، ثم الشتم، ثم الضرب، ثم إخبار العريف. والحق أنه لم يكن أحسن حفظاً للقرآن من تلاميذه، ولكن العريف قد اتخذ معه هذه الخطة، فيجب أن يكون هو عريفاً حقاً. وإذا كان العريف لا يشتمه ولا يضربه، ولا يرفع أمره إلى سيّدنا، فذلك لأنه يدفع ثمن ذلك كله غالياً.

وقد فهم الصبيان هذا فأخذوا يدفعون له الثمن غالياً أيضاً، وأخذ هو يسترد بالرشوة ما كان يدفع إلى العريف. على أن رشوته كانت متنوعة، فلم يكن محروماً في بيته، ولم يكن في حاجة إلى الخبز ولا إلى التمر ولا إلى السكر، ولم يكن يستطيع أن يقبل (الفلوس). وماذا يصنع بالفلوس وهو لا يستطيع أن ينفقها وحده؟ فهو إن قبلها دلّ على نفسه، وافترض أمره. وإذن فقد كان عسيراً وكان إرضاءه شاقاً. وكان الصبيان يتفننون في إرضائه فيشترون له أقراص النعناع و(السكر النبات) و(اللب) و(القول السوداني)، وكان يتفضل بكثير من ذلك على العريف.

ولكن لوئاً من الرشوة خاصاً كان يعجبه ويفتنه، ويشجعه على أن يهمل واجبه أشنع إهمال، وهذا اللون هو القصص والحكايات والكتب. فإذا استطاع الصبي أن يقص عليه أحداثاً، أو يشتري له كتاباً من هذا الرجل الذي يتنقل بالكتب في قرى الريف أو يتلو عليه فصلاً من قصة (الزير سالم) أو (أبي زيد) فهو واثق بما شاء من رضاه، ورفقه ومحاباته، وكان أمهر تلاميذه في هذه، صبية مكفوفة البصر، يقال لها نفيسة، أرسلها أهلها إلى الكُتّاب لتحفظ القرآن فحفظته، وأتقنت حفظه، ووكّلها<sup>(٦٣)</sup> سيّدنا إلى العريف ووكّلها العريف إلى صاحبنا، وأخذ صاحبنا يسلك معها مسلك العريف معه. وكان أهل هذه الفتاة أغنياء، ولكنهم من المحدثين. كان

(٦٣) ووكّلها إليه: تركها وجعل أمرها إليه.

أبوها حمّارًا ثم أصبح تاجرًا مثيرًا، وكان ينفق على أهله من غير حساب، ويسبغ<sup>(٦٤)</sup> عليهم سعة غريبة من العيش. فلم تكن تنقطع الفلوس من يد نفيسة. وكانت أقدر الصبيان على تخير الرشا، ثم كانت أحفظهم للقصص، وأقدرهم على الاختراع، وأحفظهم لألوان الغناء المفرح، والتعديد المبكى، وكانت تحسن الغناء والتعديد معًا.

وكانت غريبة الأطوار، فى عقلها شىء من الاضطراب، فكانت تلهى صاحبنا أكثر وقته بحديثها وتعديدها، وأفاصيصها وألوان رشوتها. وبينما كان صاحبنا يرشو ويرتشى، ويخدع ويُخدع، كان القرآن يُمحي من صدره آية وآية وسورة سورة، حتى كان اليوم المحتوم.. ويا له من يوم!

---

(٦٤) أى يضيفها عليهم ويوسعها.

كان يوم الأربعاء، وكان صاحبنا قد قضاها فرحاً مسروراً. زعم لسيدنا في أول النهار أنه قد أتم الختمة، ثم فرغ بعد ذلك لاستماع القصص والأحاديث، وعبث إلى آخر النهار.

فلما انصرف من الكتّاب لم يذهب إلى البيت، وإنما ذهب مع جماعة من أصحابه إلى الجامع ليصلى العصر. وكان يحب الذهاب إلى الجامع، والصعود في المنارة، والاشتراك مع المؤذن في التسليم (وهو النداء الذي يلي الأذان الشرعي).

ذهب في ذلك اليوم وصعد في المنارة، واشترك في الأذان وصلى. وأراد أن يعود إلى البيت، ولكنه افتقد نعله فلم يجدها. كان قد وضعها إلى جانب المنارة، فلما فرغ من الصلاة ذهب يلتمسها فإذا هي قد سرقت. أحزنه ذلك بعض الشيء، ولكنه كان فرحاً مبهجاً هذا اليوم، فلم يجزع ولم يقدر للأمر عاقبة، وعاد إلى البيت حافياً. وما كان أبعد المسافة بين البيت والجامع! ولكن ذلك لم يرعه<sup>(٦٥)</sup> فكثيراً ما مشى حافياً.

دخل البيت، وإذا الشيخ في المنظرة كعادته يدعوه: وأين نعلك؟ فيجيب: نسيتها في الكتّاب. فلا يحفل الشيخ بهذا الجواب، ثم يهمل الصبي حيناً ريثما يدخل فيتحدث إلى أمه وإخوته قليلاً، ويأكل كسرة من الخبز؛ كان من عادته أن يأكلها متى عاد من الكتّاب. ثم يدعوه الشيخ، فيسرع إلى إجابته. فإذا استقر به مكانه، قال له أبوه: ماذا تلوت اليوم من القرآن؟ فيجيب: ختمته وتلوت الأجزاء الستة الأخيرة. قال الشيخ: ومازلت تحفظه حفظاً جيداً؟ قال: نعم. قال الشيخ: فاقراً لى سورة سبأ. وكان صاحبنا قد نسى سورة سبأ، كما نسى غيرها من السور، فلم يفتح الله عليه بحرف. قال الشيخ: فاقراً سورة فاطر، فلم يفتح الله عليه بحرف. قال الشيخ في هدوء وسخرية: وقد زعمت أنك مازلت تحفظ القرآن؟ فاقراً سورة يس. ففتح الله عليه بالآيات الأولى من هذه السورة، ولكن لسانه لم يلبث أن انعقد، وريقه لم يلبث أن جف، وأخذته رعدة منكرة تصبب على أثرها في وجهه عرق بارد. قال الشيخ في هدوء: قم واجتهد في أن تنسى نعلك كل يوم، فما أرى إلا أنك أضعتكما كما أضعت القرآن، ولكن لى مع سيدك شأنًا آخر.

(٦٥) لم يرعه: لم يفزعه ولم يخيفه.



خرج صاحبنا من المنظرة منكمس الرأس مضطرباً يتعثّر، ومضى فى طريقه حتى وصل إلى الكرار . الكرار حجرة فى البيت كانت تدخّر فيها ألوان من الطعام، وكان يرى فيها الحمام . وكانت فى زاوية من زواياها القُرْمَة . وهى قطعة ضخمة عريضة من الخشب كأنها جذع شجرة . كانت أمه تقطع عليها اللحم . وكانت تدع على هذه القرمة طائفة من السكاكين؛ منها الطويل، ومنهم القصير، ومنها الثقيل ومنها الخفيف .

مضى صاحبنا حتى وصل إلى الكرار، وانعطف إلى الزاوية التى فيها القرمة، وأهوى إلى الساطور، وهو أغلظ ما كان عليها من سكين وأحدّه وأثقله، فأخذه بيمناه وأهوى به إلى قفاه ضرباً! ثم صاح، وسقط الساطور من يديه، وأسرعت أمه إليه، وكانت قريبة منه لم تحفل به حينما مرّ بها، فإذا هو واقف يضطرب والدم يسيل من قفاه! والساطور ملقى إلى جانبه... وما أسرع ما ألفت أمه نظرة إلى الجرح! وما أسرع ما عرفت أنه ليس شيئاً! وما هى إلا أن انهالت عليه شتمًا وتأنيبًا، ثم جذبته من إحدى يديه حتى انتهت به إلى زاوية من زوايا المطبخ، فألقته فيها إلقاءً وانصرفت إلى عملها. ولبت صاحبنا فى مكانه لا يتحرك ولا يتكلم ولا يبكى ولا يفكر كأنه لا شىء. وإخوته وأخواته من حوله يضطربون ويلعبون، لا يحفلون به ولا يلتفت إليهم.

وقربت المغرب، وإذا هو يدعى ليجيب أباه، فخرج خزيان متعثراً حتى انتهى إلى المنظرة. فلم يسأله أبوه عن شىء، وإنما ابتدره سيّدنا بهذا السؤال: ألم تقرأ على اليوم الأجزاء الستة من القرآن؟ قال: بلى. قال: ألم تقرأ على أمس سورة سبأ؟ قال: بلى. قال: فما بالك لم تستطع أن تقرأها اليوم؟ فلم يجب. قال سيّدنا: فاقراً سورة سبأ، فلم يفتح الله عليه منها بحرف. قال أبوه: فاقراً السجدة. فلم يحسن شيئاً. هنا اشتد غضب الشيخ، ولكن على سيّدنا لا على الصبى. قال: وإذن فهو يذهب إلى الكتاب لا ليقراً ولا ليحفظ، ولا لتعنى به أو تلتفت إليه، وإنما هو لعب وعبث! ولقد عاد اليوم حافياً، وزعم أنه نسى نعليه فى الكتاب... وما أظن عنايتك بحفظه للقرآن، إلا كعنايتك بمشيئه حافياً أو ناعلاً...

قال سيّدنا: أقسم بالله العظيم ثلاثاً ما أهملته يوماً، ولولا أنى خرجت اليوم من الكتاب قبل انصراف الصبيان، لما رجعت حافياً. وإنه ليقراً على القرآن مرة فى كل أسبوع: ستة أجزاء فى كل يوم، أسمعها منه متى وصلت فى الصباح. قال الشيخ: لا أصدق من هذا شيئاً. قال سيّدنا: امرأتى طالق ثلاثاً ما كذبتك قط، وما أنا بكاذب الآن، وإنى لأسمع له القرآن مرة فى كل أسبوع. قال الشيخ: لا أصدق. قال سيّدنا: أفظن أن ما تدفع إلى فى كل شهر أحب إلى من امرأتى؟ أم تظن أنى فى سبيل ما تدفع إلى أستحل الحرام، وأعيش مع امرأة طلقته ثلاثاً بين يديك؟ قال الشيخ: ذلك شىء لا شأن لى به، ولكن هذا الصبى لن يذهب إلى الكتاب منذ غد. ثم نهض فانصرف، ونهض سيّدنا فانصرف كئيباً محزوناً. وظل صاحبنا فى مكانه لا يفكر فى القرآن ولا

فِيمَا كَانَ، وَإِنَّمَا يَفْكَرُ فِي مَقْدَرَةِ سَيِّدِنَا عَلَى الْكُذْبِ، وَفِي هَذَا الطَّلَاقِ الْمَثَلُثِ الَّذِي أَلْقَاهُ كَمَا يَلْقَى سِيَّارَتَهُ مَتَى فَرَّغَ مِنْ تَدْخِينِهَا!!!

وَلَمْ يَظْهَرِ الصَّبِيُّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ عَلَى الْمَائِدَةِ. وَمَكَثَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ يَتَجَنَّبُ مَجْلِسَ أَبِيهِ وَيَتَجَنَّبُ الْمَائِدَةَ. حَتَّى إِذَا كَانَ الْيَوْمَ الرَّابِعَ دَخَلَ أَبُوهُ عَلَيْهِ فِي الْمَطْبَخِ حَيْثُ كَانَ يَحِبُّ أَنْ يَنْزُورَ إِلَى جَانِبِ الْفَرْنِ؛ فَمَا زَالَ يَكْلِمُهُ فِي دَعَابَةٍ وَعَطْفٍ وَرَفْقٍ، حَتَّى أَنْسَ الصَّبِيُّ إِلَيْهِ، وَانْطَلَقَ وَجْهَهُ بَعْدَ عِبُوسِهِ، وَأَخَذَهُ أَبُوهُ بِيَدِهِ فَأَجْلَسَهُ مَكَانَهُ مِنَ الْمَائِدَةِ، وَعَنَى بِهِ أَثْنَاءَ الْغَدَاءِ عَنَايَةً خَاصَّةً. حَتَّى إِذَا فَرَّغَ الصَّبِيُّ مِنْ طَعَامِهِ وَنَهَضَ لِيَنْصَرِفَ، قَالَ أَبُوهُ هَذِهِ الْجُمْلَةُ فِي مَزَاحٍ قَاسٍ لَمْ يَنْسَهُ قَطُّ، لِأَنَّهُ أَضْحَكَ مِنْهُ إِخْوَتَهُ جَمِيعًا، وَلِأَنَّهُمْ حَفِظُوهَا لَهُ، وَأَخَذُوا يَغِيظُونَهُ بِهَا مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ. قَالَ: (أَحْفَظْتَ الْقُرْآنَ؟).

وانقطع الصبى عن الكتّاب، وانقطع سيّدنا عن البيت والتمس الشيخ فقيهاً آخر يختلف إلى<sup>(٦٦)</sup> البيت فى كل يوم؛ فيتلو فيه سورة من القرآن مكان سيّدنا. ويقرئ الصبى ساعة أو ساعتين. وظل الصبى حرّاً يعبث ويلعب فى البيت متى انصرف عنه الفقيه الجديد. حتى إذا كان العصر أقبل عليه أصحابه ورفاقه مُنصَرَفِهِمْ<sup>(٦٧)</sup> من الكتّاب، فيقصون عليه ما كان فى الكتّاب، وهو يلهو بذلك، ويعبث بهم وبكتّابهم، وبسيّدنا وبالعريف. وكان قد خيل إليه أن الأمر قد انبت<sup>(٦٨)</sup> بينه وبين الكتّاب ومن فيه، فلن يعود إليه، ولن يرى الفقيه ولا العريف. فأطلق لسانه فى الرجلين إطلاقاً شنيعاً، وأخذ يظهر من عيوبهما وسيئاتهما ما كان يخفيه، وأخذ يلعنهما أمام الصبيان ويصفهما بالكذب والسرقة والطمع. ويتحدث عنهما بأشياء منكّرة؛ كان يجد فى التحدث بها شفاءً لنفسه، ولذة لهؤلاء الصبيان. وما له لا يطلق لسانه فى الرجلين، وليس بينه وبين السفر إلى القاهرة إلّا شهر واحد؛ فسيعود أخوه الأزهرى من القاهرة بعد أيام؛ حتى إذا قضى إجازته اصطحبه إلى الأزهر؛ حيث يصبح مجاوراً، وحيث تتقطع عنه أخبار الفقيه والعريف.

الحقّ أنه كان سعيداً فى هذه الأيام؛ كان يشعر بشيء من التفوق على رفاقه وأترابه، فهو لا يذهب إلى الكتّاب كما يذهبون، وإنما يسعى إليه الفقيه سعياً. وسيسافر إلى القاهرة حيث الأزهر، وحيث (سيّدنا الحسين) وحيث (السيدة زينب) وغيرهما من الأولياء. وما كانت القاهرة عنده شيئاً آخر، إنما كانت مستقر الأزهر، ومشاهد الأولياء والصالحين.

ولكن هذه السعادة لم تدم إلا ريثما يعقبها شقاء شنيع؛ ذلك أن سيّدنا لم يطق صبراً على هذه القطيعة، ولم يستطع أن يحتمل انتصار الشيخ عبد الجواد عليه، فأخذ يتوسل بفلان وفلان إلى الشيخ. وما هى إلا أن لانت قناة<sup>(٦٩)</sup> الشيخ، وأمر الصبى بالعودة إلى الكتّاب متى أصبح. عاد كارهاً مقدراً ما سيلقاه من سيّدنا وهو يقرئه القرآن للمرة الثالثة، ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد كان الصبيان ينقلون إلى الفقيه والعريف كل ما يسمعون من صاحبهم. والله أوقات الغداء طول هذا الأسبوع! وما كان سيّدنا ينال به الصبى من لوم! وما كان العريف يعيد عليه من ألفاظه؛ تلك التى كان يطلق بها لسانه مقدراً أنه لن يرى الرجلين!

(٦٦) يختلف إلى البيت: يتردد عليه.

(٦٧) منصرفهم: وقت انصرفهم.

(٦٨) انبت: انقطع.

(٦٩) لين القناة هنا: كناية عن الرضا.

فى هذا الأسبوع تعلم الصبى الاحتياط فى اللفظ، وتعلم أن من الخطل والحُمق<sup>(٧٠)</sup>، الاطمئنان إلى وعيد الرجال، وما يأخذون أنفسهم به من عهد. ألم يكن الشيخ قد أقسم لا يعود الصبى إلى الكتاب أبداً؟ وما هو ذا قد عاد. وأى فرق بين الشيخ يقسم ويحنت! وبين سيدنا يرسل الطلاق والأيمان إرسالاً، وهو يعلم أنه كاذب؟ وهؤلاء الصبيان يتحدثون إليه، فيشتمون له الفقيه والعريف، ويغرونه<sup>(٧١)</sup> بشتمهما، حتى إذا ظفروا منه بذلك، تقربوا به إلى الرجلين وابتغوا<sup>(٧٢)</sup> به إليهما الوسيلة. وهذه أمه تضحك منه، وتغرى به سيدنا حين أقبل يتحدث إليها بما نقل إليه الصبيان. وهؤلاء إخوته يشمتون به، ويعيدون عليه مقالة سيدنا من حين إلى حين، يغيظونه ويثيرون سخطه. ولكنه كان يحتمل هذا كله فى صبر وجلد. وما له لا يصبر ولا يتجلد، وليس بينه وبين فراق هذه البيئة<sup>(٧٣)</sup> كلها، إلا شهر أو بعض شهر!

---

(٧٠) الخطل والحُمق: قلة العقل وفساده.

(٧١) أغراه به: أولعه به وخصه عليه.

(٧٢) ابتغوا: طلبوا. والوسيلة: ما يقرب به إلى الغير.

(٧٣) البيئة: (بالكسر): اسم من تبنوا المكان إذا حله. ويراد بها المكان الذى يأويه الإنسان وكل ما يحيط به فيه.

ولكن الشهر مضى، ورجع الأزهرى إلى القاهرة، وظل صاحبنا حيث هو كما هو، لم يسافر إلى الأزهر، ولم يتخذ العمّة ولم يدخل في جبة أو قفطان.

كان لا يزال صغيراً، ولم يكن من اليسير إرساله إلى القاهرة، ولم يكن أخوه يحب أن يحتمله، فأشار بأن يبقى حيث هو سنة أخرى، فبقى ولم يحفل أحد برضاه أو غضبه. على أن حياته تغيرت بعض الشيء، فقد أشار أخوه الأزهرى بأن يقضى هذه السنة في الاستعداد للأزهر، ودفع إليه كتابين يحفظ أحدهما جملة، ويستظهر من الآخر صحفاً مختلفة.

فأما الكتاب الذى لم يكن بدّ من حفظه كله فألفية ابن مالك. وأما الكتاب الآخر فمجموع المتون. وأوصى الأزهرى قبل سفره بأن يبدأ بحفظ الألفية، حتى إذا فرغ منها وأتقنها إتقاناً، حفظ من الكتاب الآخر أشياء غريبة، بعضها يسمى (الجوهرة)، وبعضها يسمى (الخريدة)، وبعضها يسمى (السراجية)، وبعضها يسمى (الرّحبيّة)، وبعضها يسمى (لاميّة الأفعال). وكانت هذه الأسماء تقع من نفس الصبى مواقع تيه وإعجاب، لأنه لا يفهم لها معنى، ولأنه يقدر أنها تدل على العلم، ولأنه يعلم أن أخاه الأزهرى قد حفظها وفهمها فأصبح عالماً وظفر بهذه المكانة الممتازة فى نفس أبويه وإخوته وأهل القرية جميعاً. ألم يكونوا جميعاً يتحدثون بعودته قبل أن يعود بشهر، حتى إذا جاء أقبلوا إليه فرحين مبتهجين متلفين؟ ألم يكن الشيخ يشرب كلامه شرباً، ويعيده على الناس فى إعجاب وفخار؟ ألم يكن أهل القرية يتوسلون إليه أن يقرأ لهم درساً فى التوحيد أو الفقه؟ وماذا عسى أن يكون التوحيد؟ وماذا عسى أن يكون الفقه؟ ثم ألم يكن الشيخ يتوسل إليه، ملحاً مستعظفاً مسرفاً فى الوعد، باذلاً ما استطاع وما لم يستطع من الأمانى، ليلقى على الناس خطبة الجمعة؟ ثم هذا اليوم المشهود يوم مولد النبي. ماذا لقى الأزهرى من إكرام وحفاوة، ومن

تجلة وإكبار؟ كانوا قد اشتروا له قفطاناً جديداً، وجبة جديدة وطربوشاً جديداً، و(مركوباً) جديداً. وكانوا يتحدثون بهذا اليوم وما سيكون منه قبل أن يظلمهم بأيام. حتى إذا أقبل هذا اليوم وانتصف، أسرعت الأسرة إلى طعامها فلم تصب منه إلا قليلاً، ولبس الفتى الأزهرى ثيابه الجديدة، واتخذ فى هذا اليوم عمامة خضراء، وألقى على كتفيه شالاً من الكشمير، وأمه تدعو وتتلو التعاويذ، وأبوه يخرج ويدخل جذلان مضطرباً. حتى إذا تم للفتى من زيه وهيبته ما كان يريد، خرج فإذا فرس ينتظره بالبواب، وإذا رجال يحملونه فيضعونه على السرج، وإذا قوم يكتنفونه من يمين ومن شمال، وآخرون يسعون بين يديه، وآخرون يمشون من خلفه، وإذا البنادق تطلق فى الفضاء، وإذا النساء يزغردن من كل ناحية، وإذا الجو يتأرجح بعرف البخور،



وإذا الأصوات ترتفع متغنية بمدح النبي، وإذا هذا الحفل كله يتحرك فى ببطء وكأنما تتحرك معه الأرض وما عليها من دور. كل ذلك لأن هذا الفتى الأزهرى قد اتخذ فى هذا اليوم خليفة، فهو يطاف به فى المدينة وما حولها من القرى فى هذا المهرجان الباهر. وما باله اتخذ خليفة دون غيره من الشبان؟ لأنه أزهرى قد قرأ العلم وحفظ الألفية والجوهرة والخريفة!

فلم لا يبتهج الصبى حين يرى أن سيقراً من العلم ما قرأ أخوه، وأن سيمتاز من رفاقه وأترابه بحفظ الألفية والجوهرة والخريفة؟

وكم كان فرحاً مختلاً حين غدا إلى الكتاب يوم السبت، وفى يده نسخة من (الألفية)! لقد رفعت هذه النسخة درجات، وإن كانت هذه النسخة ضئيلة قذرة سيئة الجلد؛ ولكنها على ضآلتها وقذارتها، كانت تعدل عنده خمسين مصحفاً من هذه المصاحف التى كان يحملها أترابه.

المصحف! لقد حفظ ما فيه فما أفاد من حفظه شيئاً. وكثيراً من الشبان يحفظونه فلا يحفل بهم أحد، ولا ينتخبون خلفاء يوم المولد النبوى.

ولكن الألفية... وما أدراك ما الألفية؟

وحسبك أن سيدنا لا يحفظ منها حرفاً. وحسبك أن العريف لا يحسن أن يقرأ الأبيات الأولى منها. والألفية شعر، وليس فى المصحف شعر.

الحق أنه ابتهج بهذا البيت:

أحمد ربى الله خير مالك

قال محمد هو ابن مالك

ابتهاجاً لم يشعر بشيء مثله أمام أى سورة من سور القرآن.



وكيف لا يبتهج وقد أحسّ منذ اليوم الأول أنه ارتفع درجات؛ فأصبح (سيّدنا) لا يستطيع أن يشرف على حفظه للألفية، ولا أن يقرئه إيّاها، بل ضاق الكتاب كله بالألفية، وكلف الصبي أن يذهب في كل يوم إلى المحكمة الشرعية؛ ليقراً على القاضى ما يريد أن يحفظه من الألفية. القاضى عالم من علماء الأزهر، أكبر من أخيه الأزهرى، وإن كان أبوه لا يؤمن بذلك، ولا يرى أن القاضى يكافئ ابنه. هو على كل حال عالم من علماء الأزهر، وهو قاضى الشرع (بقاف ضخمة وراء مفخمة) وهو فى المحكمة لا فى الكتاب. وهو يجلس على دكة مرتفعة، قد وضعت عليها الطنافس والوسائد، لا تقاس إليها دكة سيّدنا، وليس حولها نعال مرقعة. وعلى بابهِ رجلان يقومان مقام الحاجب، ويسميها الناس هذا الاسم البديع، الذى لم يكن يخلو من هيبه: (الرُّسُل).

نعم! كان يجب على الصبي أن يذهب إلى المحكمة فى كل صباح، فيقرأ على القاضى باباً من أبواب الألفية. وكم كان القاضى يحسن القراءة! كم كان يملأ فمه بالقاف والراء! وكم كان صوته يتهدج (٧٤) بقول ابن مالك:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم      واسم وفعل ثم حرف الكلم  
واجده كلمة والقول عم      وكلمة بها كلام قد يؤم

ولقد استطاع القاضى أن يؤثّر فى نفس الصبي، ويملأه تواضعاً حين قرأ هذه الأبيات:

وتقتضى رضا بغير سُخط      فائقة أليفة ابن معطى  
وهو بسبق حائز تفضيلاً      مستوجب ثنائى الجميلاً  
والله يقضى بهبات وافرة      لى وله فى درجات الآخرة

(٧٤) تهدج صوته: تقطع فى ارتعاش.

قرأ القاضي هذه الأبيات بصوت يحطمه البكاء حطماً، ثم قال للصبي: من تواضع لله رفعه، أتفهم هذه الأبيات؟ قال الصبي: لا. قال القاضي: إن المؤلف رحمه الله تعالى: عندما بدأ في نظم ألفيته اغترّ وأخذه الكبر فقال: (فائقة ألفتة ابن معطى) فلما كان الليل رأى فيما يرى النائم، أن ابن معطى قد أقبل يعاتبه عتاباً شديداً، فلما أفاق من نومه أصلح من هذا الغرور وقال: (وهو بسبق حائز تفضيلاً).

وكم كان الشيخ فرحاً مبتهجاً حين عاد إليه الصبي عصر ذلك اليوم؛ فقص عليه ما سمع من القاضي، وقرأ عليه الأبيات الأولى من الألفية! فكان يقطع هذه الأبيات بهذه الكلمة التي يعبر بها الناس عن الاستحسان: (الله! الله!).

على أن لكل شيء حداً. فقد مضى صاحبنا في حفظ الألفية فرحاً مبتهجاً حتى انتهى إلى باب المبتدأ، ثم فترت همته، وكان أبوه يسأله عصر كل يوم: هل ذهبت إلى المحكمة؟ فيجيب: نعم. فكم حفظت؟ فيقرأ له ما حفظ.

ولكن الأمر ثقل عليه منذ باب المبتدأ، فأخذ يحفظ ويذهب إلى المحكمة متثاقلاً متباطئاً، حتى وصل إلى باب المفعول المطلق، ثم لم يستطع أن يتقدم خطوة قصيرة ولا طويلة. ولبت يذهب إلى المحكمة في كل يوم، ويقرأ على القاضي فصلاً من فصول الألفية، حتى إذا عاد إلى الكتاب ألقى الألفية في ناحية، وانصرف إلى عبثه ولعبه، وإلى قراءة القصص والأحاديث.

فإذا كان العصر وسأله أبوه: هل ذهبت إلى المحكمة؟ أجاب: نعم. وكم حفظت من بيت؟ أجاب: عشرين. من أى باب؟ من باب الإضافة، أو من باب النعت، أو من باب جمع التكسير. فإذا قال له: اقرأ على ما حفظت، قرأ عليه عشرين بيتاً من المائتين الأوليين، مرة من المعرب والمبني، وأخرى من النكرة والمعرفة، وثالثة من المبتدأ والخبر، والشيخ لا يفهم شيئاً، ولا يلاحظ أن ابنه يخدعه! وإنما يكتفى بأن يسمع كلاماً منظوماً، وهو مطمئن إلى القاضي. ومن غريب الأمر أن الشيخ لم يفكر مرة واحدة في أن يفتح الألفية، ويقابل على الصبي وهو يقرأ. ولو قد فعل يوماً من الأيام، لكانت للصبي قصة كقصته مع سورة الشعراء، أو سبأ، أو فاطر...

على أن الصبي تعرض لهذا الخطر مرة. ولولا أن أمه شفعت فيه لكان له مع أبيه موقف مشهود.

كان له أخ يختلف إلى المدارس المدنية، فعاد من القاهرة ليقضى فصل الصيف، واتفق أنه حضر هذا الامتحان اليومي أيامًا متصلة؛ فسمع الشيخ يسأل الصبي: أى باب قرأت؟ فيجيب الصبي: باب العطف (مثلاً). فإذا طلب إليه أن يعيد ما قرأ، أعاد عليه باب العَم أو باب الصلّة والموصول.

سكت الشاب فى أول يوم، وفى اليوم الذى يليه، فلما كثر ذلك انتظر حتى انصرف الشيخ، وقال للصبي أمام أمه: إنك تخدع أباك وتكذب عليه، وتلعب فى الكتاب، ولا تحفظ من الألفية شيئاً. قال الصبي: إنك كاذب! وما أنت وذاك؟! وإنما الألفية للأزهريين لا لأبناء المدارس! وسلّ القاضى ينيئك بأنى أذهب إلى المحكمة فى كل يوم. قال الشاب: أى باب حفظت اليوم؟ قال الصبي: باب كذا. قال الشاب: ولكنك لم تقرأ هذا الباب على أبيك، وإنما قرأت عليه باب كذا، وهات نسخة الألفية أمتحكك فيها. بُهت الصبي وظهر عليه الوجوم، وهمّ الشاب أن يقص القصة على الشيخ، ولكن أمه توسلت إليه! وكان الشاب رقيقاً بأمه رءوفاً بأخيه، فسكت. وظل الشيخ على جهله حتى عاد الأزهري. فلما عاد امتحن الصبي، وما هى إلا أن عرف جليلة الأمر، فلم يغضب ولم ينذر ولم يخبر الشيخ، وإنما أمر الصبي أن ينقطع عن الكتاب والمحكمة. وأحفظه الألفية كلها فى عشرة أيام.

للعلم فى القرى ومدن الأقاليم جلال ليس له مثله فى العاصمة ولا فى بيئاتها العلمية المختلفة. وليس فى هذا شىء من العجب ولا من الغرابة، وإنما هو قانون العرض والطلب، يجرى على العلم كما يجرى على غيره مما يباع ويشترى. فبينما يروح العلماء ويغدون فى القاهرة لا يحفل بهم أحد، أو لا يكاد يحفل بهم أحد، وبينما يقول العلماء فيكثرون فى القول، ويتصرفون فى فنونه، دون أن يلتفت إليهم أحد غير تلاميذهم فى القاهرة، ترى علماء الريف، وأشياخ القرى ومدن الأقاليم، يغدون ويروحون فى جلال ومهابة، ويقولون فيستمع لهم الناس مع شىء من الإكبار مؤثر جذاب. وكان صاحبنا متأثرًا بنفسية الريف، يكبر العلماء كما يكبرهم الريفيون، ويكاد يؤمن بأنهم فُطِرُوا<sup>(٧٥)</sup> من طينة نقية ممتازة، غير الطينة التى فطر منها الناس جميعًا.

وكان يسمع لهم وهم يتكلمون، فيأخذ شىء من الإعجاب والدهش، حاول أن يجد مثله فى القاهرة أمام كبار العلماء، وجلة الشيوخ فلم يوفق.

كان علماء المدينة ثلاثة أو أربعة؛ قد تقسموا فيما بينهم إعجاب الناس ومودتهم. فأما أحدهم فكان كاتبًا فى المحكمة الشرعية، قصيرًا ضخماً، غليظ الصوت جهوريه، يمتلئ شذقه بالألفاظ حين يتكلم؛ فتخرج إليك هذه الألفاظ ضخمة كصاحبها، غليظة كصاحبها، وتصدمك معانيها كما تصدمك مقاطعها. وكان هذا الشيخ من الذين لم يفلحوا فى الأزهر؛ قضى فيه ما شاء أن يقضى من السنين، فلم يوفق إلى العالمية ولا إلى القضاء، ففنع بمنصب الكاتب فى المحكمة، على حين كان أخوه قاضيًا ممتازًا، قد جعل إليه قضاء أحد الأقاليم. ولم يكن هذا الشيخ يستطيع أن يجلس فى مجلس إلا فخر بأخيه، وذم القاضى الذى هو معه. كان حنفى المذهب، وكان أتباع أبى حنيفة فى المدينة قليلين، أو لم يكن لأبى حنيفة فى المدينة أتباع؛ فكان ذلك يغيظه ويحنقه على خصومه العلماء الآخرين،

الذين كانوا يتبعون الشافعى أو مالكا، ويجدون فى أهل المدينة صدق لعلمهم، وطلابًا للفتوى عندهم. فكان لا يدع فرصة إلا مجد فيها فقه أبى حنيفة، وغض فيها من فقه مالك والشافعى. وأهل الريف مكرة أذكىاء، فلم يكن يخفى عليهم أن الشيخ إنما يقول ما يقول، ويأتى ما يأتى من الأمر، متأثرًا بالحدق والموجدة<sup>(٧٦)</sup>، فكانوا يعطفون عليه، ويضحكون منه. وكانت المنافسة

(٧٥) فطروا: خلقوا.

(٧٦) الموجدة: الغضب



شديدة عنيفة بين هذا الشيخ وبين الفتى الأزهرى. كان ينتخب خليفة فى كل سنة، فغاضه أن ينتخب هذا الفتى خليفة دونه. ولما تحدث الناس أن الفتى سيلقى خطبة الجمعة سمع الشيخ هذا الحديث ولم يقل شيئاً. حتى إذا كان يوم الجمعة وامتلاً المسجد بالناس؛ وأقبل الفتى يريد أن يصعد المنبر، نهض الشيخ حتى انتهى إلى الإمام، وقال فى صوت سمعه الناس: إن هذا الشاب حديث السن، وما ينبغى له أن يصعد المنبر ولا أن يخطب، ولا أن يصلى بالناس وفيهم الشيوخ وأصحاب الأسنان، ولئن خليت بينه وبين المنبر والصلاة لأنصرفن. ثم التفت إلى الناس وقال: ومن كان منكم حريصاً على ألا تبطل صلاته فليتبغني. سمع الناس هذا فاضطربوا، وكادت تقع بينهم الفتنة لولا أن نهض الإمام فخطبهم وصلى بهم، وحيل بين الفتى وبين المنبر هذا العام. ومع ذلك فقد كان الفتى أجهد نفسه فى حفظ الخطبة واستعد لهذا الموقف أياماً متصلة، وتلا الخطبة على أبيه غير مرة، وكان أبوه ينتظر هذه الساعة أشد ما يكون إليها شوقاً، وأعظم ما يكون بها ابتهاجاً. وكانت أمه مشفقة تخاف عليه العين، فما كاد يخرج إلى المسجد ذلك اليوم، حتى نهضت إلى جمر وضعت فى إناء وأخذت تلقى فيه ضروباً من البخور، وتطوف به البيت حجرة حجرة، تقف فى كل حجرة لحظات وتهتمهم بكلمات. وظلت كذلك حتى عاد ابنها، فإذا هى تلقاه من وراء الباب مبخرة مهممة، وإذا الشيخ مغضب يلعن هذا الرجل الذى أكل الحسد قلبه، فحال بين ابنه وبين المنبر والصلاة.

وكان فى المدينة عالم آخر شافعى. كان إمام المسجد، وصاحب الخطبة والصلاة، وكان معروفاً بالتقى والورع، يذهب الناس فى إكباره وإجلاله إلى حد يشبه التقديس. كانوا يتبركون به، ويلتمسون عنده شفاء مرضاهم وقضاء حاجاتهم. وكأنه كان يرى فى نفسه شيئاً من الولاية. وظل أهل المدينة بعد موته سنين يذكرونه بالخير، ويتحدثون مقتنعين بأنه عندما أنزل فى قبره قال بصوت سمعه المشيعون جميعاً: اللهم اجعله منزلاً مباركاً. وكانوا يتحدثون بما رأوا فيما يرى النائم من حظ هذا الرجل عند الله، وما أعد له فى الجنة من نعيم.

وشيوخ ثالث كان فى المدينة، وكان مالكي المذهب، ولم يكن ينقطع للعلم ولا يتخذ حرفة، وإنما كان يعمل فى الأرض، ويتجر، ويختلف إلى المسجد فيؤدى الخمس، ويجلس إلى الناس من حين إلى حين، فيقرأ لهم الحديث، ويفقههم فى الدين متواضعاً غير تياه ولا فخور، ولم يكن يحفل به إلا الأقلون عدداً.

هؤلاء هم العلماء. ولكن علماء آخرين كانوا مُنْبئين<sup>(٧٧)</sup> فى هذه المدينة وقرأها وريفها. ولم يكونوا أقل من هؤلاء العلماء الرسميين تأثيراً فى دماء الناس وتسلطاً على عقولهم، منهم

(٧٧) منبئين: منتشرين.

هذا الحاج الخياط الذى كان دكانه يكاد يقابل الكتّاب، والذى كان الناس مجمعين على وصفه بالبخل والشح، والذى كان متصلاً بشيخ من كبار أهل الطرق. والذى كان يزديري<sup>(٧٨)</sup> العلماء جميعاً، لأنهم يأخذون علمهم من الكتب لا عن الشيوخ، والذى كان يرى أن العلم الصحيح إنما هو العلم اللدني، الذى يهبط على قلبك من عند الله دون أن تحتاج إلى كتاب؛ بل دون أن تقرأ أو تكتب.

ومنهم هذا الشيخ الذى كان فى أول أمره حمّاراً ينقل للناس بضائعهم وأمتعتهم، ثم أصبح تاجرًا، واقتصرت حمرة على نقل تجارته، والذى كان الناس مجمعين على أنه أكل أموال اليتامى، وأثرى<sup>(٧٩)</sup> على حساب الضعفاء، والذى كان يكثر من ترديد هذه الآية وتفسيرها: "إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً". والذى كان يكره الصلاة فى المسجد الجامع، لأنه كان يكره الإمام ومن إليه من العلماء، ويؤثر الصلاة فى جامع صغير لا قيمة له ولا مكانة.

ومنهم هذا الشيخ الذى لم يكن يقرأ ولا يكتب ولا يحسن قراءة الفاتحة، ولكنه كان شاذلياً من أصحاب الطريق. كان يجمع الناس إلى الذكر، ويفتيهم فى أمور دينهم ودنياهم.

ثم منهم الفقهاء الذين كانوا يقرأون القرآن ويقرئونه للناس، والذين كانوا يميزون أنفسهم من العلماء ويتسمون (حملة كتاب الله) والذين كانوا يتصلون بدهماء الناس والنساء منهم خاصة. كانت جمهرتهم من المكوفين، فكانوا يدخلون البيوت يتلون فيها القرآن، وكان النساء يتحدثن إليهم، ويستفتينهم فى أمور الصوم والصلاة وما إلى ذلك من أمورهن. وكان لهؤلاء الفقهاء علم مخالف كل المخالفة لعلم العلماء، الذين يأخذون علمهم من الكتب، والذين بينهم وبين الأزهر سبب قوى أو ضعيف.

وكان علمهم مخالفاً أيضاً لعلم أصحاب الطرق وأهل العلم اللدني. كانوا يأخذون علمهم من القرآن مباشرة، يفهمونه كما يستطيعون، لا كما هو ولا كما ينبغى أن يفهم. يفهمونه كما كان يفهمه سيدنا، وكان من أذكى الفقهاء، وأشدهم علماً وأقدرهم على التأويل، سأله الصبى ذات يوم: ما معنى قول الله تعالى: وقد خلقكم أطواراً؟ فأجاب هادئاً مطمئناً: خلقكم كالثيران لا تعقلون شيئاً. أو يفهمونه كما يفهمه جدّ هذا الصبى نفسه، وكان من أحفظ الناس للقرآن، وأبرعهم فى فهمه وتفسيره وتأويله. سأله حفيده ذات يوم عن قول الله تعالى: ومن الناس من يعبد الله على

(٧٨) ازدراره: احتقره واستخف به.

(٧٩) أثرى: كثر ماله.

حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة؛ فقال: (على حرف دكّة، على حرف مصطبة.. فإن أصابه خير فهو مطمئن في مكانه، وإن أصابه شر انكفأ على وجهه).

وكان صبينا يختلف<sup>(٨٠)</sup> بين هؤلاء العلماء جميعاً، ويأخذ عنهم جميعاً، حتى اجتمع له من ذلك مقدار من العلم ضخّم مختلف مضطرب متناقض، ما أحسب إلا أنه عمل عملاً غير قليل في تكوين عقله الذي لم يخل من اضطراب واختلاف وتناقض.

---

(٨٠) يختلف هنا: يتردد.

وشيوخ الطريق، وما شيوخ الطريق؟ كانوا كثيرين مُنْبَتِّين <sup>(٨١)</sup> في أقطار الأرض، لا تكاد تخلو منهم المدينة أسبوعاً.

وكانت مذاهبهم مختلفة، وكانوا قد تقسموا الناس فيما بينهم فجعلوهم شيعاً، وفرقوا أهواءهم تفريقاً عظيماً. وكانت المنافسة حادة في الإقليم بين أسرتين من أصحاب الطريق، لإحداهما أعلاه وللأخرى أسفله.

وإذا كان أهل الإقليم ينتقلون ولا يآبون على أنفسهم الهجرة من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة داخل الإقليم، فقد كان يتفق أن ينزل أتباع إحدى الأسرتين حيث تتسلط الأسرة الأخرى. وكان زعماء الأسرتين ينتقلون في الإقليم يزورون أتباعهم وأشياهم. والله ما كان يحدث من الخصومات يوم يهبط صاحب العالية إلى السافلة، أو يصعد صاحب السافلة إلى العالية! وكان أبو الصبى من أتباع صاحب العالية، أخذ عنه العهد، وأخذ عنه أبوه من قبل. وكانت أم الصبى من أتباع صاحب العالية أيضاً، بل كان أبوها من أنصاره وحوارييه <sup>(٨٢)</sup> المقربين إليه. ومات صاحب العالية وخلفه على الطريق ابنه الحاج. وكان أنشط من أبيه، وأقدر على الكيد واللؤم، وأنهض للخصومة. كان أقرب من أبيه إلى الدنيا، وأبعد من أبيه عن الدين.

وكان أبو الصبى قد هبط إلى السافلة واستقر فيها، فكانت لصاحب العالية عادة أن يزوره مرة في كل سنة. وكان إذا أقبل لم يقبل وحده، ولم يقبل في نفر قليل، وإنما أقبل في جيش ضخم؛ إن لم يبلغ المائة فليس ينحط عنها إلا قليلاً. ولم يكن يتخذ قطر السكة الحديدية ولا سفن النيل، وإنما كان يتخذ الجياد والبغال والحمير، يسير ومن حوله أصحابه فيمرون بالقرى والداكر، وينزلون ويرحلون في أبهة وضخامة، منتصرين حيث لا سلطان إلا لهم، متحدين <sup>(٨٣)</sup> حيث لخصومهم شيء من القوة. وكانوا إذا زاروا أسرة الصبى أقبلوا حتى ينزلوا، فإذا الشارع ممثليهم وبخيلهم وبغالهم وحميرهم، قد أخذوه من القناة إلى أقصاه الجنوبي. وإذا الشاء تذبج، وإذا السُّمُط <sup>(٨٤)</sup> ممدودة في الشارع، وإذا هم إلى طعامهم في شره لا يعدله شره، والشيخ جالس

(٨١) أى منتشرين في نواحي الأرض.

(٨٢) الحواري: الناصر.

(٨٣) التحدي: طلب المباراة للغلبة.

(٨٤) السمط: جمع سباط (بالكسر)، وهو ما يبسط ليوضع عليه الطعام.

فى المنظرة ومن حوله أصفياؤه وأولياؤه، وبين يديه صاحب البيت وأخصاؤه يأترون أمره<sup>(٨٥)</sup>. فإذا فرغوا من الغداء انصرفوا عنه فنام حيث هو ثم نهض فتوضأ. فانظر إلى الناس يستبقون ويختصمون أيهم يصب عليه الماء! فإذا فرغ فانظر إليهم يستبقون ويختصمون أيهم يصيب من وضوء<sup>(٨٦)</sup> الشيخ جرعة! والشيخ عنهم فى شغل، يصلى فيطيل الصلاة، ويدعو فيطيل الدعاء. حتى إذا فرغ من هذا كله جلس للناس وهم يتقاطرون عليه؛ منهم من يقبل يده وينصرف خاشعاً، ومنهم من يتحدث إليه لحظة أو لحظات، ومنهم من يسأله حاجة، والشيخ يجيب أولئك وهؤلاء بألفاظ غريبة غامضة، يذهبون فى فهمها وتأويلها المذاهب.

أدخل عليه الصبى فمسح رأسه وتلا قول الله تعالى: وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا من ذلك اليوم اقتنع أبو الصبى بأن سيكون لابنه شأن. فإذا صليت المغرب مدّت الموائد وأكل الناس، ثم تصلى العشاء، ثم ينصب المجلس.

ونصب المجلس عبارة عن اجتماع الناس إلى حلقة الذكر، يذكرون الله قاعدين ساكنين، ثم تتحرك رعوسهم وترتفع أصواتهم قليلاً، ثم تتحرك أنصافهم وترتفع أصواتهم قليلاً، ثم تنبث فى أجسامهم رعدة فإذا هم جميعاً وقوف؛ قد دفعوا فى الهواء كأنما حركهم لولب، وقد انبث فى الحلقة شيوخ ينشدون شعر ابن الفارض وما يشبهه من الشعر. وكان لهذا الشيخ خاصة كلف بقصيدة معروفة، فيها ذكر الإسراء والمعراج أولها:

من مكة والبيت الأجدد للقدس سرى ليلاً أحمد

كان الشيخ يرتلونها ترتيلاً، وكان الذاكرون يحركون أجسامهم على هذا الترتيل، ينحنون ويستقيمون كأنما يرقصهم هؤلاء الشيوخ ترقيصاً.

ومهما ينس الصبى فلن ينسى ليلة غلط فيها أحد المنشدين فوضع لفظاً مكان لفظ من القصيدة، وإذا الشيخ قد ثار وفار، وأرغى وأزبد<sup>(٨٧)</sup>، وصاح بملء صوته: يا بنى الكلاب! لعن الله آباءكم وآباء آبائكم وآباء آبائكم إلى آدم! أتريدون أن تخربوا بيت الرجل!

ومهما ينس الصبى فلن ينسى تأثير هذه الغضبة فى نفوس الذاكرين، وفى نفوس الناس من حولهم، وكان الناس قد اقتنعوا بأن الغلط فى هذه القصيدة مصدر شؤم لا يشبهه شؤم.

(٨٥) ائتمر أمره: امتثله.

(٨٦) الوضوء (بفتح الواو): الماء الذى يتوضأ به.

(٨٧) أرغى وأزبد: ضج غضباً، وتهدد وتوعد.

وأظهر أبو الصبى تأثيراً وفزعاً، ثم اطمئنناً وهدوءاً. فلما انصرف الشيخ من الغد وتذاكرت الأسرة ما كان من أمره، وما كان من قصته مع الذاكرين والمنشدين، ضحك صاحب البيت ضحكة لم يشكَّ الصبى بعدها فى أن إيمان أبيه بهذا الشيخ لم يكن خالصاً من الشك والازدراء. نعم من الشك والازدراء! فقد كان طمع الشيخ وحرصه أظهر من أن يندفع بهما من له حظ من أناة وتفكير.

وكان من أشد الناس مقنناً للشيخ وسخطاً عليه أم الصبى. كانت تكره زيارته، وتستثقل ظله، وتؤدى ما تؤدى، وتعدّ ما تعدّ وهى كارهة ساخطة؛ لا تكاد تمسك لسانها إلا فى مشقة وعناء؛ ذلك لأن زيارة الشيخ كانت ثقيلة على هذه الأسرة التى كانت تعيش من سعة، ولكنها كانت فقيرة على كل حال.

كانت زيارة الشيخ تستهلك كثيراً من القمح والسمن والعسل وما إلى ذلك، وكانت تكلف صاحب البيت الاقتراض لشراء ما لا بد منه من الضأن والمعز. وكان الشيخ لا يلم بهذه الأسرة إلا ارتحل من غده وقد أخذ شيئاً راقه وأعجبه. يأخذ فى هذه المرة بساطاً، وفى هذه شالاً من الكشمير، وعلى هذا النحو.

كانت زيارة هذا الشيخ وأصحابه شيئاً ترغب فيه الأسرة رغبة شديدة، لأنه يمكنها من الفخر ورفع الرأس، ومناوأة الأشباه والنظائر، وتكرهه كرها شديداً لأنه يكلفها ما يكلفها من المال والمشقة. كانت شراً لا بد منه جرت به العادة، وصادف هوى فى الناس. وكان اتصال الأسرة بهذا البيت من بيوت الطريق قوياً متيناً، ترك فيها آثاراً باقية من الأخبار والقصص، وأحاديث الكرامات والمعجزات. وكانت أم الصبى وأبوه يجدان لذة فى أن يتحدثا إلى أبنائهما بهذه الأخبار والأحاديث. ولم تكن أم الصبى تدع فرصة إلا قصت فيها هذه القصة: (حج أبى ومعه جدتى مع الشيخ خالد مرة، وكان الشيخ قد حج ثلاث مرات تبعه فيها أبى، واصطحب أمه هذه المرة. فلما فرغوا من الحج وانصرفوا إلى المدينة، وقعت الشيخة فى بعض الطريق من الرّحل<sup>(٨٨)</sup>، فانحطم ظهرها انحطاماً، وعجزت عن المشى والحركة، وأخذ ابنها يحملها وينقلها من مكان إلى مكان، ويجد فى ذلك من المشقة والعناء ما شكاه إلى الشيخ ذات يوم، فقال له الشيخ: ألسنت تزعم أنها شريفة من نسل الحسن بن علي؟ قال: بلى. قال: فهى ذاهبة إلى جدها، فإذا انتهيت بها إلى المسجد النبوى فضعها فى ناحية منه، وخلّ بينها وبين جدها يصنع بها ما يشاء. وكذلك فعل الرجل: وضع أمه فى ناحية من نواحي المسجد، وقال لها فى لغة الفلاح الجافية يملؤها مع

(٨٨) الرجل للبعير كالسرج للفرس.

جفوتها الحب والإشفاق: أنت وجدك، فليس لى بكما شأن. ثم تركها وتبع شيخه يريد أن يطوف بقبر النبي. قال الرجل: فوالله ما خطوت خطوات حتى سمعت أمى تناديني، فالتفت فإذا هي قائمة تسعى، وأبيت أن أعود إليها، فإذا هي تعدو من ورائى عدوا، وإذا هي تسبقنى إلى الشيخ وتطوف مع الطائفين).

وكان أبو الصبى لا يدع فرصة إلا ذكر فيها عن الشيخ هذه القصة: ذكر أمامه أن الغزالي قال فى بعض كتبه: إن النبى لا يمكن أن يرى فيما يرى النائم. فغضب الشيخ وقال: والله ما هكذا كان الأمل فيك يا غزالي، لقد رأيتُه بعينى رأسى هذا راكبًا بغلته. وذكر له ذلك مرة أخرى فقال: والله ما هكذا كان الأمل فيك يا غزالي، لقد رأيتُه بعينى رأسى هذا راكبًا ناقته. وكان أبو الصبى يستتبط من ذلك أن الغزالي قد أخطأ، وأن عامة الناس يستطيعون أن يروا النبى فيما يرى النائم، وأن الأولياء والصالحين يستطيعون أن يروه وهم أيقاظ وكان أبو الصبى يثبت هذا بحديث يرويه كلما ذكر هذه القصة وهو:

من رانى فى المنام فقد رانى حقًا فإن الشيطان لا يتمثل بى وعلى هذا النحو حفظ الصبى ألوانًا من أخبار الكرامات والمعجزات وأسرار الصوفية. وكان إذا أراد أن يتحدث بشيء من ذلك إلى أتراه ورفاقه فى الكتّاب قصوا عليه أمثاله؛ يضيفونه إلى صاحب السافلة ويؤمنون به إيمانًا شديدًا. كانت لأهل الريف شيوخهم وشبانهم وصبيانهم ونسائهم عقلية خاصة فيها سذاجة وتصوّف وغفلة، وكان أكبر الأثر فى تكوين هذه العقلية لأهل الطريق.

على أن صبينا لم يلبث أن أضاف إلى هذه الألوان من العلم لونا آخر جديداً، وهو علم السحر والطلاسم، فقد كان باعة الكتب يتنقلون في القرى والمدن بخليط من الأسفار؛ لعله أصدق مثل لعقيدة الريف في ذلك العهد. كانوا يحملون في حقائبهم مناقب الصالحين، وأخبار الفتوح والغزوات، وقصة القط والفأر، وحوار السلك والوابور، وشمس المعارف الكبرى في السحر وكتاباً آخر لست أدري كيف كان يسمى، ولكنه كان يعرف بكتاب (الدياربي) ثم أوراداً مختلفة، ثم قصص المولد النبوي، ثم مجموعات من الشعر الصوفي، ثم كتباً في الوعظ والإرشاد، وأخرى في المحاضرات وعجائب الأخبار، ثم قصص الأبطال من الهالبيين والزنايين، وعنتر، والظاهر بيبرس، وسيف بن ذي يزن، ثم القرآن الكريم مع هذا كله. وكان الناس يشترون الكتب كلها، ويلتهمون ما فيها التهاماً، وكانت عقليتهم تتكون من خلاصته كما تتكون أجسامهم من خلاصة ما كانوا يأكلون ويشربون.

وقد قرئ لصاحبنا من هذا كله، فحفظ منه الشيء الكثير ولكنه عنى بشيئين عناية خاصة:

عنى بالسحر، وعنى بالتصوف. ولم يكن في الجمع بين هذين اللونين من العلم شيء من الغرابة ولا من العسر، فإن التناقض الذي يظهر بينهما ليس إلا صورياً في حقيقة الأمر. ليس الصوفي يزعم لنفسه وللناس أنه يخترق حجب الغيب، وينبئ بما كان وما سيكون، كما أنه يتعدى حدود القوانين الطبيعية ويأتي بضروب الخوارق والكرامات؟ والساحر ماذا يصنع؟ أليس يزعم لنفسه القدرة على الإخبار بالغيب، وتجاوز حدود القوانين الطبيعية أيضاً، والاتصال بعالم الأرواح؟... بلى! كل ما يوجد من الفرق بين الساحر والصوفي هو أن هذا يتصل بالملائكة وذلك يتصل بالشياطين. ولكن يجب أن نقرأ ابن خلدون وأمثاله لنصل إلى تحقيق مثل هذا الفرق، ونرتب عليه نتائج الطبيعة من تحريم السحر والترغيب عنه، وتحبيب التصوف والترغيب فيه.

وما كان أبعد صبينا وأترابه عن ابن خلدون وأمثال ابن خلدون! إنما كانت تقع في أيديهم كتب السحر ومناقب الصالحين وكرامات الأولياء، فيقرأون ويتأثرون ثم لا يلبثون أن يتجاوزوا القراءة والإعجاب إلى الاقتداء والتجربة. وإذا هم يسلكون مناهج الصوفية ويأتون ما يأتيه السحرة من ضروب الفن، وكثيراً ما يختلط في عقولهم السحر والتصوف، فيصبح كلاهما شيئاً واحداً، غايته تيسير الحياة والتقرب إلى الله.



وكذلك كان الأمر فى نفس صاحبنا، فقد كان يتصوّف ويتكلف السحر، وهو واثق بأنه سيرضى الله، ويظفر من الحياة بأحب لذاتها إليه.

وكان من القصص التى تكثر فى أيدى الصبيان يحملها إليهم باعة الكتب، قصة اقتطعت من (ألف ليلة وليلة) وتعرف بقصة (حسن البصرى). فى هذه القصة أخبار ذلك المجوسى الذى كان يحول النحاس ذهباً. وأخبار ذلك القصر الذى كان يقوم من وراء الجبل على عمد شاهقة فى الهواء، وتقيم فيه بنات سبع من بنات الجن، والذى أوى إليه حسن البصرى، ثم أخبار حسن هذا وما كان من رحلته الطويلة الشاقة إلى دور الجن. وبين هذه الأخبار خبر ملأ الصبى إعجاباً؛ وهو أن قضيباً أهدى إلى حسن هذا فى بعض رحلته وكان من خواص هذا القضيب أن تضرب به الأرض فتتشق ويخرج منها تسعة نفر يأمرون أمر<sup>(٨٩)</sup> صاحب القضيب، وهم بالطبع من الجن أقوىاء خفاف يطيرون ويعدون ويحملون الأثقال ويقتلعون الجبال، ويأتون من عجيب الأمر ما لا حدّ له.

فُتِنَ الصبى بهذه العصا، ورغب فى أن يظفر بها رغبة شديدة قوية أرقت<sup>(٩٠)</sup> ليله ونغصت يومه. فأخذ يقرأ كتب السحر والتصوف، يلتمس عند السحرة والمتصوفين وسيلة تمكنه من هذه العصا.

وكان له قريب صبى مثله يرافقه إلى الكُتَّاب، فكان أشد منه كلفاً بهذه العصا. وما هى إلا أن جدّ الصبيّان فى البحث حتى انتهىا إلى وسيلة يسيرة تمكنهما مما يريدان. وجداها فى كتاب الديارى، وهى أن يخلو الفتى إلى نفسه وقد تطهّر ووضع بين يديه ناراً ومقداراً من الطيب ثم يأخذ فى ترديد هذا الاسم من أسماء الله (يا لطيف يا لطيف) ملقياً فى النار شيئاً من الطيب من حين إلى حين، فيمضى فى ترديد هذه الكلمة وتحريق هذا الطيب، حتى تدور به الأرض، وينشق أمامه الحائط ويمثل أمامه خادم من الجن موكل بهذا الاسم من أسماء الله، فيطلب إليه ما يريده، والحاجة مقضية من غير شك.

(٨٩) انتمر أمره: امتثله وعمل به.

(٩٠) الأرق: ذهاب النوم بالليل. والمراد أن هذه الرغبة الشديدة أرقته هو فى ليله ونغصته فى يومه. ولكن الكاتب قد سلك سبيل المجاز فى الإسناد؛ فجعل التأريق واقعاً على الليل والتغيب واقعاً على اليوم، ليدل على أن التأريق استغرق ليله كله وأن التغيب استغرق يومه كله.

ظفر الصبيّان بهذه الوسيلة فاعتزما أن يستخدمها. وما هي إلا أن اشترىا ضروريًا من الطيب، وخلا صبينا إلى نفسه في المنظرة، أغلق بابها من دونه ووضع بين يديه قطعًا من النار وأخذ يلقي فيها الطيب، ويردّد: (يا لطيف! يا لطيف!). وطال به هذا وهو ينتظر أن تدور به الأرض وينشق له الحائط ويمثل الخادم بين يديه، ولكن شيئًا من ذلك لم يكن. وهنا تحوّل صبينا الساحر المتصوف إلى نصّاب.

خرج من المنظرة مضطربًا يمسك رأسه بيديه ولا يكاد لسانه ينطلق بحرف واحد، فتلقاه صاحبه الصبي يسأله: هل لقي الخادم؟ وهل طلب إليه العصا؟ وصاحبنا لا يجيب إلا مضطربًا مرتجفًا، تصطك أسنانه اصطكاكا، حتى روع رفيقه الصبي. وبعد لأي (٩١) أخذ صاحبنا يهدأ ويجيب في ألفاظ متقطعة، وبصوت متهدج: (لقد دارت بي الأرض حتى كدت أسقط، وانشق الحائط وسمعت صوتًا ملاً الحجرة من جميع نواحيها، ثم أغمى عليّ، ثم أفقت فخرجت مسرعًا)!

سمع الصبي هذا! فامتلاً فرحًا وإعجابًا بصاحبه وقال له: هوّن عليك، فقد أصابك الرعب وملك الخوف عليك أمرك، فلنبحث في الكتاب عن شيء يؤمنك ويشجعك على أن تثبت للخادم وتطلب منه ما تشاء. واستأنفا البحث في الكتاب. وانتهى بهما البحث إلى أنّ صاحب الخلوة يجب أن يصلّي ركعتين قبل أن يجلس إلى النار ويأخذ في ترديد هذا الاسم. وكذلك فعل الصبي من غده، وأخذ يلقي الطيب في النار ويردّد دعاء (اللطيف) ينتظر أن تدور به الأرض، وينشق له الحائط، ويمثل الخادم بين يديه. ولكن شيئًا من ذلك لم يكن. وخرج الصبي إلى صاحبه هادئًا مطمئنًا، فأخبره أن قد دارت الأرض وانشق الحائط ومثل الخادم بين يديه وسمع منه حاجته، ولكنه لم يشأ أن يجيبه إليها حتى يمّرّن على هذه الخلوة ويكثر من الصلاة وإطلاق البخور وذكر الله، وضرب له موعدًا لقضاء هذه الحاجة شهرًا كاملاً يأتي فيه هذا الأمر في نظام، فإن فسد هذا النظام فلا بد من استئناف الأمر شهرًا كاملاً آخر. وصدّق الصبي صاحبه، وأخذ يلحّ عليه في يوم أن يخلو إلى النار ويردّد الدعاء، وأخذ الصبي يستغلّ من صاحبه هذا الضعف، ويكلفه ما شاء من مشقة وعناء، فإن أبي أو أظهر الإباء أعلن إليه صاحبنا أنه لن يخلو إلى النار، ولن يدعو (اللطيف) ولن يلتمس العصا؛ فيذعن إذعائًا سريعًا.

على أن صاحبنا لم يكن يميل وحدة إلى السحر والتصوف، وإنما كان يُدفع إلى ذلك دفعًا، يدفعه إليه أبوه. ذلك أن الشيخ كان كثير الحاجات عند الله: كان له أبناء كثيرون، وكان يحرص على تعليمهم وتهذيبهم وكان فقيرًا لا يستطيع أن يُؤدى نفقات ذلك التعليم، وكان يستدين

(٩١) بعد لأي: بعد ببطء واحتباس أو بعد جهد.

من حين إلى حين ويثقلُ عليه أداء الدين، وكان يطمع في أن يزداد رابته من حين إلى حين، وكان يطمع في أن يتقدم درجةً وينتقل من عمل إلى عمل، وكان يلتمس هذا كله عند الله بالصلاة والدعاء والاستخارة، وكان أحبُّ وسائل الالتماس إليه "عديّة يس" وكان يطلب "عديّة يس" هذه إلى ابنه الصبي، لأنه صبي ولأنه مكفوف، وهو بهاتين المزيّتين أثيرٌ<sup>(٩٢)</sup> عند الله رفيعُ المكانة عنده. وهل رضى الله أن يرود صبيًّا مكفوفًا حين يطلب إليه أمرًا من الأمور متوسلاً بقراءة القرآن!

وكانت "عديّة يس" مراتب: أولها أن يخلو الإنسان إلى نفسه فيقرأ هذه السورة من سور القرآن أربع مرات، ثم يطلب ما يشاء وينصرف، والثانية أن يخلو إلى نفسه فيتلو هذه السورة سبع مرات، ثم يطلب ما يشاء وينصرف والثالثة أن يخلو إلى نفسه فيتلو هذه السورة إحدى وأربعين مرة لا يفرغ من قراءتها مرة حتى يتعبها بداء يس: "يا عصابة الخير بخير الملل" فإذا أتم القراءة طلب ما شاء وانصرف، والبخور محتوم في هذه المرتبة الثالثة وكان الشيخ يكلف ابنه العديّة الصغرى في صغار الأمور،، والوسطى في الأمور الهامة، والكبرى في الأمور التي تمس حياة الأسرة كلها، فإذا سعى في أن يدخل أحد أبنائه في المدرسة مجانًا فالعديّة الصغرى، وإذا التمس إلى الله أداء دين ثقيل فالعديّة الوسطى، وإذا رغب في أن ينتقل من عمل إلى عمل وأن يزداد راتبه جنيهاً أو بعض الجنيه فالعديّة الكبرى، وكان لكل عديّة أجر فأما العديّة الصغرى فأجرها قطعة من السكر أو الحلوى، وأما العديّة الوسطى فأجرها خمسة مليمات، وأما العديّة الكبرى فأجرها عشرة، وكثيرًا ما خلا الصبي إلى نفسه أو قرأ سورة يس أربعًا أو سبعًا أو إحدى وأربعين ومن عجيب الأمر أن الحاجات، كانت تُفضى دائمًا، وما هي إلا أن تمّ اقتناع الشيخ بأن ابنه مبارك وبأنه أثير عند الله.

ولم يكن أمر السحر والتصوّف مقصورًا على قضاء الحاجات والتنبؤ بما سينجلى عنه الغيب، وإنما كان يتجاوز هذا كله إلى دفع المكروه واثقاء النكبات. وقد نسي الصبي أشياء كثيرة، ولكنه لم ينس هذا الرعب الذي ملأ قلوب الناس جميعًا في المدينة وما حولها من القرى؛ حين وصلت إليهم الأخبار من القاهرة بأن نجمًا ذا ذنب سيظهر في السماء بعد أيام؛ حتى إذا كانت الساعة الثانية بعد الظهر مسّ الأرض بطرف من ذنبه فإذا هي هشيم<sup>(٩٣)</sup> تذروه الرياح. فأما النساء وعامة الناس فلم يحفلوا بهذا أو لم يكادوا يحفلون به، وإنما كانوا يشعرون بشيء من الرعب كلما تحدثوا بهذه النازلة أو سمعوا الحديث عنها، ثم لا يلبثون أن ينصرفوا إلى ما هم فيه

(٩٢) أثير عند الله: مقرب مكرم.

(٩٣) الهشيم: اليباس المتكسر من النبات والشجر.

من حياة عملية. وأما المتفقهون في الدين وحملة القرآن وأصحاب الطرق وتلاميذهم فكانوا هلعين<sup>(٩٤)</sup> حقًا مُروّعين، لا تكاد تستقرّ قلوبهم بين جنوبهم، وكانوا يتحاورون<sup>(٩٥)</sup> في ذلك حوارًا متصلًا، فمنهم من يزعم أن هذه الكارثة لن تقع، لأنها مخالفة لما عرف من أشرطة<sup>(٩٦)</sup> الساعة. وما كان للأرض أن تفنى قبل أن تظهر الدابة والنار والدجال، وقبل أن يهبط المسيح إلى الأرض فيملأها عدلاً بعد أن ملئت جورًا. ومنهم من كان يظن أن الكارثة من أشرطة الساعة. ومنهم من كان يتحدث بأن هذه الكارثة قد تقع فتصيب الأرض بشيء من التدمير دون أن تأتي عليها جميعًا. كانوا يتحاورون طول النهار، حتى إذا أقبل الليل وصلبت المغرب اجتمعوا حلقًا في المسجد وأمام الدور، وأخذوا يُردّدون هذه الكلمة: أُرقت الآرفة. ليس لها من دون الله كاشفة، حتى تصلى العشاء. وانقضت الأيام، وجاءت الساعة المحتومة، ولم يظهر في السماء نجم ذو ذنب ولم يصب الأرض دمار قليل ولا كثير. فانقسم المتفقهون في الدين وحملة القرآن وأصحاب الطرق. فأما أهل العلم الذين يستمدون علمهم من الكتب وينتمون<sup>(٩٧)</sup> إلى الأزهر فانتصروا، وقالوا: (ألم نقل لكم: إن هذه الكارثة لا يمكن أن تقع قبل أن تظهر أشرطة الساعة؟ ألم ندعكم إلى تكذيب المنجمين؟). وأما حملة القرآن فقالوا: (كلا، لقد كادت تقع الكارثة لولا أن لطف الله بالرضع والحوامل والبهائم، وسمع لدعاء الداعين، وتضرع المتضرعين). وأما أهل التصوف والعلم اللدني فقالوا: (كلا لقد كادت تقع الكارثة لولا أن توسط القطب المتولى بين الناس والله، فصرف عن الناس هذا البلاء، واحتمل عنهم أوزارهم<sup>(٩٨)</sup>).

وأنت تستطيع أن تقول: إن هذا الدافع الذي كان يدفع الناس إلى التحصن من الخمسين كان سحرًا أو تصوفًا. أما أنا فلا أستطيع إلا أن أحدثك بما يذكر الصبي من أن الأيام التي كانت تسبق أيام شم النسيم كانت أيامًا غريبة؛ يخالط فيها قلوب النساء والصبيان وحملة القرآن شيء من الفرح والخوف. كانوا إذا أظلمهم يوم الجمعة أسرفوا في الأكل وفي ألوان خاصة من الطعام، حتى إذا كان يوم السبت أسرفوا في أكل البيض الملون. وكان الفقهاء قد استعدوا لهذا اليوم استعدادًا خاصًا فاشتروا ورقًا أبيض صفيلاً، وقطعوه قطعًا صغارًا دقًا وكتبوا على كل قطعة (ا ل م ص) ثم يطوون هذه القطع ويملأون بها جيوبهم. حتى إذا كان يوم السبت المُوا

(٩٤) هلعين: جزعين أشد الجزع. والجزع: ضد الصبر. ومروعين: مفرعين خائفين.

(٩٥) يتحاورون: يراجعون الكلام بينهم.

(٩٦) أشرطة الساعة: علامات قيامها.

(٩٧) ينتمون: ينتسبون.

(٩٨) الأوزار: الآثام والذنوب، الواحد وزر (بكسر فسكون)

(٩٩) بالدور التي كانوا يتصلون بها ففرقوا هذه القطع من الورق على أهلها، وطلبوا إلى كل واحد أن يبتلع منها أربعاً قبل أن يُلمَّ (١٠٠) بطعام أو شراب. وكانوا يزعمون للناس أن ابتلاع هذه القطع من الورق يصرف عنهم ما تأتي به الخمسون من المكروه، ويصرف عنهم الرمد بنوع خاص. وكان الناس يصدقونهم ويبتلعون هذا الورق ويؤدون إلى الفقهاء ثمنه بيضاً أحمر وأصفر. وليس يدرى الصبي ماذا كان يصنع سيّدنا بما كان يجتمع له من البيض في يوم سبت النور؟ فقد كان كثيراً يتجاوز المئات. على أن استعداد الفقهاء لهذا اليوم لم يكن يقف عند إعداد هذه القطع من الورق، وإنما كان يتجاوز ذلك إلى شيء آخر! كانوا يشترون الورق الأبيض الصقيل، ويقطعونها قطعاً طويلة عريضة بعض العرض، ويكتبون عليها مخلفات النبي:

مخلف طه سبختان ومصحف ومكحلة سجادتان رعى العصا

حتى إذا فرغوا من هذه المخلفات أضافوا إليها دعاءً آخر يبتدئ بهذه الكلمات التي كان الفقهاء يقولون إنها سريانية: (دنبد دنبي، كرى كرندى، سرى سرندى، سبر سبريتونا، واحسبوا البعيد عنا لا يأتينا، والقريب منا لا يؤذينا....) إلخ.. ثم يطوون هذه الأوراق على أنها حجب وتمائم، يفرقونها في البيوت على النساء والصبيان، ويتقاضون أثمانها دراهم وخبزاً وفطيراً وضروباً من الحلوى، ويزعمون للناس أن اتخاذ هذه التمائم والحجب يدفع عنهم أذى هذه الشياطين التي تحملها رياح الخمسين. وكان النساء يتلقين هذه الحجب مطمئنات إليها، ولكن ذلك لم يكن يمنعهن من انتقاء العفاريت يوم شم النسيم بشق البصل وتعليقه على أبواب الدور، وأكل الفول النابت دون غيره من ألوان الطعام في هذا اليوم.

---

(٩٩) ألموا بالدور هنا: زاروها.

(١٠٠) أى قبل أن يصيب منه.

وأراد الله أن يَشْفَى سَيِّدَنَا بتلميذه شقاً غير قليل. فلم تكفه تلك الحوادث التي كانت تحدث من حين إلى حين عندما كان الشيخ يمتحن الصبي، ولم تكفه هذه النكبات المتصلة التي نشأت عن عناية الصبي بحفظ الألفية وغيرها من المتون، وجعلت الصبي تقيلاً سمجاً يتعالى على أترابه وعلى سيده، ويرى لنفسه مكانة العلماء، ويعصى أوامر العريف. لم يكفه هذا كله، بل كانت نكبة أخرى لم يكن الرجل ينتظرها حقاً، وكانت أشد عليه من كل النكبات الأخرى، لأنها مسته في صناعته. ذلك أن رجلاً من أهل القاهرة هبط إلى المدينة في يوم من الأيام على أنه مفتش للطريق الزراعية. وكان هذا الرجل في متوسط عمره. وكان مطربشا يتكلم الفرنسية، وكان يقول: إنه تخرج من مدرسة الفنون والصنائع. وكان خفيف الظل جذاباً. فما لبث أن أحبه الناس ودعوه إلى دورهم ومجالسهم. وما لبث أن اتصلت المودة بينه وبين أبي الصبي. وكان قد رتب سيِّدنا في بيته يقرأ له سورة من القرآن في كل يوم، وجعل له عشرة قروش في كل شهر، وهو الأجر المرتفع الذي كان يدفعه وجوه الناس. فكان سيِّدنا محباً لهذا الرجل مثنياً عليه. ولكن رمضان أقبل، وكان الناس يجتمعون في ليالي رمضان عند رجل من أهل المدينة وجيه يعمل في التجارة. وكان سيِّدنا يقرأ القرآن عند هذا الرجل طوال الشهر. وكان الصبي يرافق سيِّدنا ويربِّحه من حين إلى حين بقراءة سورة أو جزء مكانه. فقرأ ذات ليلة وسمعه هذا المفتش، فقال لأبيه: إن ابنك لشديد الحاجة إلى تجويد القرآن. قال الشيخ: سيجوده متى ذهب إلى القاهرة على شيخ من شيوخ الأزهر. قال المفتش: فأنا أستطيع أن أجود له القرآن على قراءة حفص حتى إذا ذهب إلى الأزهر كان قد ألم بأصول التجويد<sup>(١٠١)</sup>، وسهل عليه أن يفرغ للقراءات السبع أو العشرة أو الأربع عشرة. قال الشيخ: وهل أنت من حملة القرآن؟ قال المفتش: ومن المجودين، ولولا أنني مشغول لاستطعت أن أقرئ ابنك القرآن على الروايات جميعاً، ولكني أحب أن أخصص له ساعة في كل يوم فأقرئه رواية حفص، وأدرس له أصول الفن، وأعدّه بذلك للأزهر إعداداً صحيحاً. قال القوم: وكيف لمطربش يتكلم الفرنسية بحفظ القرآن ورواية القراءات؟ قال المفتش: أنا أزهري تقدمت في دراسة العلوم الدينية إلى مدى بعيد، ثم انصرفت عنها إلى المدارس فتخرجت من مدرسة الفنون والصنائع. قالوا: فاقراً لنا شيئاً. فنزع الرجل نعليه وتربع ورتل لهم سورة هود ترتيلاً ما سمعوا مثله. فلا تسل عن إعجابهم به وإكبارهم إياه، ولا تسل عما أصاب سيِّدنا من الحزن والغیظ، فقد قضى الرجل ليلته كأنه مصعوق<sup>(١٠٢)</sup>.

(١٠١) ألم بأصول التجويد: عرفها.

(١٠٢) مصعوق: أصابته صاعقة.

وأصبح الشيخ فأمر ابنه بأن يَخْتَلِفَ (١٠٣) إلى بيت المفتش في كلِّ يوم. وفرح الصبي بهذا فرحاً شديداً، فأعاده على أترابه في الكُتَّاب وتحدَّث به إلى الصبيان. ولا تَسَلُّ عن مقدار ما كان يترك هذا الحديث في نفس سيِّدنا من الحزن، فقد نَهَرَ (١٠٤) الصبي وأمر ألا يذكر اسم المفتش مرة أخرى في الكُتَّاب.

وذهب الصبي إلى بيت المفتش واتَّصل ذهابه إلى هذا البيت وأقرأه المفتش "تُحْفَةَ الأطفال" وشرح له أصول التجويد: علِّمه المدَّ والغنَّ والإخفاء والإدغام وما يتصل بهذا كله. وكان الصبي معجبا بهذا العلم، وكان يتحدث به إلى أترابه في الكُتَّاب، وكان يبين لهم أن سيِّدنا لا يحسن المدَّ ولا يتقن الغنَّ، ولا يعرف الفرق بين المد الكلمي والحرفي، ولا بين المد المتقل والمخفَّف، وكانت أصداء هذا كله تصل إلى سيِّدنا فتغمه وتحزنه وتخرجه أحيانا عن طوره.

وأخذ الصبي يقرأ القرآن على المفتش من أوله، وأخذ المفتش يعلمه مواضع الوقف والوصل، وأخذ الصبي يقلد المفتش في ترتيله ويحاكي نغمه، وأخذ يقرأ القرآن على هذا النحو في الكُتَّاب وجعل أبوه يمتحنه. فإذا سمعه يقرأ على هذا النحو الجديد أعجب وطرب وأثنى على المفتش. وما كان شيء يغيب سيِّدنا مثل ما كان يغيبه هذا الشاء.

وقضى الصبي سنة كاملة يتردد على هذا البيت ويقرأ القرآن على المفتش حتى أتقن التجويد برواية حفص، وكاد يبدأ في رواية ورش لولا أن حدثت حوادث وسافر الصبي إلى القاهرة.

أكان الصبي يحبُّ الاختلافَ إلى هذا البيت لأنه كان يعجب بالمفتش ولأنه كان يحرص على إتقان القرآن وتجويده وعلى أن يغيب سيِّدنا ويظهر التفوق على أترابه؟ نعم! في الشهرين الأولين من هذه السنة. فأما بعد هذين الشهرين فقد كان يجذبه إلى بيت المفتش ويحببه فيه شيء آخر...

كان المفتش مُتوسط العُمُر قد بلغ الأربعين إن لم يكن قد جاوزها، وكان قد تزوج من فتاة لم تبلغ السادسة عشرة، ولم يكن له ولد، ولم يكن يعمر بيته الكبير إلا هذه الفتاة وجدَّة لها قد جاوزت الخمسين. فأما حين بدأ الصبي يختلف إلى هذه الدار فقد كان يذهب ويعود دون أن يلتفت إليه أحد غير المفتش. وما هي إلا أن كثر تردد الصبي حتى أخذت الفتاة تتحدث إليه وتُساله عن نفسه وعن أمه وعن إخوته وعن داره، وأخذ الصبي يجيبها مستحييا، ثم متبسطا، ثم

(١٠٣) يختلف هنا: يتردد.

(١٠٤) نهره: زجره.

مطمئناً. واتصلت بين هذه الفتاة وهذا الصبي مودة ساذجة كانت حلوة في نفس الصبي لذيدة  
الموقع في قلبه، وكانت ثقيلة على نفس هذه الشبيخة، وكان المفتش يجهلها جهلاً تاماً.

وأخذ الصبي يذهب إلى دار المفتش قبل الميعاد ليظفر بساعة أو بعض ساعة يتحدث  
فيها إلى هذه الفتاة، وأخذت الفتاة تنتظره، حتى إذا أقبل أخذته إلى غرفتها، فجلست وأجلسته  
وتحدثا. وما هي إلا أن استحال الحديث إلى لعب، إلى لعب كلعب الصبيان لا أكثر ولا أقل،  
ولكنه كان لعباً لذيداً. وقصّ الصبي هذا كله على أمه، فَضَحِكَتْ وَرَثَتْ<sup>(١٠٥)</sup> للفتاة قائلة لأخت  
الصبي: طفلة زوجت من هذا الشيخ لا تعرف أحداً ولا يعرفها أحد فهي ضيقة الصدر في حاجة  
إلى اللهو والعبث.

ومن ذلك اليوم سعت أم الصبي في التعرف إلى هذه الفتاة ودعتها إلى البيت وإلى أن  
تُكثِرَ التَّردُّدَ عليها.

---

(١٠٥) رثت للفتاة: رحمتها ورقت لها.

وكذلك اتصلت أيام الصبى بين البيت والكتّاب والمحكمة والمسجد وبيت المفتش ومجالس العلماء وحلقات الذكر، لا هى بالحلوة ولا هى بالمرّة، ولكنها تحلو حيناً وتمر حيناً آخر، وتمضى فيما بين ذلك فاترة سخيفة حتى كان يوم من الأيام ذاق الصبى فيه الألم حقاً، وعرف منذ ذلك أن تلك الآلام التى كان يشقى بها ويكره من أجلها الحياة لم تكن شيئاً، وأن الدهر قادر على أن يؤلم الناس ويؤذّبهم ويحبب إليهم الحياة ويهون من أمرها على نفوسهم فى وقت واحد. كانت للصبى أخت هى صغرى أبناء الأسرة، كانت فى الرابعة من عمرها. كانت خفيفة الروح طليقة الوجه فصيحة اللسان عذبة الحديث قوية الخيال، كانت لهو الأسرة كلها، كانت تخلو إلى نفسها ساعات طوالاً فى لهو وعبث، تجلس إلى الحائط فتتحدث إليه كما تتحدث أمها إلى زائرتها، وتبعث فى كل اللعب التى كانت بين يديها روحاً قوياً وتسبغ عليها شخصية. فهذه اللعبة امرأة وهذه اللعبة رجل، وهذه اللعبة فتى، وهذه اللعبة فتاة، والطفلة بين هؤلاء الأشخاص جميعاً تذهب وتجيء، وتصل بينها الأحاديث مرة فى لهو وعبث، وأخرى فى غيظ وغضب، ومرة ثالثة فى هدوء واطمئنان. وكانت الأسرة كلها تجد لذة قوية فى الاستماع إلى هذه الأحاديث والنظر إلى هذه الألوان من اللعب دون أن ترى الطفلة، أو تسمع، أو تحس أن أحداً يرقبها.

فما هى إلا أن أقبلت بوادى عيد الأضحى فى سنة من السنين، وأخذت أم الصبى تستعد لهذا العيد تهيئ له الدار وتعد له الخبز وألوان الفطير، وأخذ إخوة الصبى يستعدون لهذا العيد، يختلف كبارهم إلى الخياط حيناً، وإلى الحذاء حيناً آخر، ويلهو صغارهم بهذه الحركة الطارئة على الدار، فينظر صبينا إلى أولئك وهؤلاء فى شيء من الفلسفة كان قد تعودته. فلم يكن فى حاجة إلى أن يختلف إلى خياط أو حذاء، وما كان ميالاً إلى اللهو بمثل هذه الحركات الطارئة، وإنما كان يخلو إلى نفسه ويعيش فى عالم من الخيال يستمد من هذه القصص والكتب المختلفة التى كان يقرؤها فيسرف فى قراءتها.

أقبلت بوادى هذا العيد، وأصبحت الطفلة ذات يوم فى شيء من الفتور والهمود لم يكد يلتفت إليه أحد. والأطفال، فى القرى ومدن الأقاليم معرضون لهذا النوع من الإهمال، ولا سيما إذا كانت الأسرة كثيرة العدد، وربة البيت كثيرة العمل. ولنساء القرى ومدن الأقاليم فلسفة آثمة وعلم ليس أقل منها إثماً. يشكو الطفل، وقلما تعنى به أمه، وأى طفل لا يشكو؟ إنما هو يومٌ وليلةٌ ثم يُفِيقُ ويُبِيلُ<sup>(١٠٦)</sup>. فإن عنيت به أمه فهى تزدرى الطبيب أو تجهله، وهى تعتمد على هذا

(١٠٦) أبل من مرضه: شفى منه.

العلم الآثم، علم النساء وأشباه النساء. وعلى هذا النحو فقد صبينا عينيهِ؛ أصابه الرمد فأهمل أيامًا، ثم دعى الحلاق فعالجه علاجًا ذهب بعينيهِ. وعلى هذا النحو فقدت هذه الطفلة الحياة؛ ظلت فاترة هامدة محمومة يومًا ويومًا ويومًا، وهي ملقاة على فراشها في ناحية من نواحي الدار، تعنى بها أمها أو أختها من حين إلى حين، تدفع إليها شيئًا من الغذاء الله يعلم أكان جيدًا أم رديئًا؟ والحركة متصلة في البيت: يهياُ الخبز والفتير في ناحية، وتنظف المنظرة وحجرة الاستقبال في ناحية أخرى، والصبيان في لهوهم وعبثهم، والشبان في ثيابهم وأحذيتهم، والشيخ يغدو ويروح ويجلس إلى أصحابه آخر النهار وأول الليل.

حتى إذا كان عصرُ اليوم الرابع وقف هذا كله فجأة. وقف وعرفت أم الصبي أن شبحًا مخيفًا يخلق على هذه الدار. ولم يكن الموت قد دخل هذه الدار من قبل، ولم تكن هذه الأم الحنون قد ذاقت لذع الألم الصحيح. نعم! كانت في عملها وإذا الطفلة تصيح صياحًا منكرًا، فتدع أمها كل شيء وتسرع إليها، والصياح يتصل ويزداد، فتدع أخوات الطفلة كل شيء ويسرعن إليها. والصياح يتصل ويشتد، والطفلة تتلوى وتضطرب بين ذراعي أمها، فيدع الشيخ أصحابه ويسرع إليها. والصياح يتصل ويشتد، والطفلة ترتعد ارتعادًا منكرًا ويتقبض وجهها ويتصبب العرق عليه، فينصرف الصبيان والشبان عما هم فيه من لهو وحديث ويسرعون إليها. ولكن الصياح لا يزداد إلا شدة، وإذا هذه الأسرة كلها واجمةً مبهوتةً<sup>(١٠٧)</sup> محيطة بالطفلة لا تدرى ماذا تصنع!... ويتصل ذلك ساعة وساعة. فأما الشيخ فقد أخذ الضعف الذي يأخذ الرجال في مثل هذه الحال، فينصرف مَهْمَمًا<sup>(١٠٨)</sup> بصلوات وآيات من القرآن يتوسل بها إلى الله. وأما الشبان والصبيان فيتسللون في شيء من الوجوم لا يكادون ينسون ما كانوا فيه من لهو وحديث ولا يكادون يستأنفونه. هم كذلك حيارى في الدار! وأمهم جالسة واجمةٌ تُحدِّق إلى ابنتها وتسقيها ألوانًا من الدواء لا أعرف ما هي. والصياح متصلٌ مشتدٌ، والاضطراب مستمرٌّ متزايد.

ما كنت أحسب أن في الأطفال ولمَّا يتجاوزوا الرابعة قوة تعدل هذه القوة. وتأتى ساعة العشاء وقد مُدَّتِ المائدة، مَدَّتْها كُبرى أخوات الصبي، وأقبل الشيخ وبنوه فجلسوا إليها. ولكن صياح الطفلة متصل فلا تُمدُّ يد إلى طعام، وإنما يتفرقون جميعًا وترفع المائدة كما مَدَّت. والطفلة تصيح وتضطرب، وأمها تحدق فيها حينًا وتبسط يدها إلى السماء حينًا آخر، وقد كشفت عن رأسها وما كان من عاداتها أن تفعل! ولكن أبواب السماء كانت قد أُغلقت في ذلك اليوم، فقد سبق القضاء بما لا بد منه، فيستطيعُ الشيخ أن يتلو القرآن، وتستطيع هذه الأم أن تتضرع. ومن غريب

(١٠٧) واجمة: عابسة مطرقة لشدة الحزن. ومبهوتة: متحيرة.

(١٠٨) الهمهمة: الكلام الخفي.

الأمر أن أحداً من هؤلاء الناس جميعاً لم يفكر فى الطبيب. وتقدم الليل وأخذ صياح الفتاة يهدأ، وأخذ صوتها يخفت<sup>(١٠٩)</sup>، وأخذ اضطرابها يخفُّ، وخيّل إلى هذه الأمّ التعسة أن قد سمع الله لها ولزوجها، وأن قد أخذتِ الأزمة<sup>(١١٠)</sup> تتحلّ. وفى الحقّ أنّ الأزمة كانت قد أخذت تتحلّ، وأن الله كان قد رآف بهذه الطفلة، وأن خفوت الصوت وهدوء هذا الاضطراب كانا آيتى هذه الرأفة. تنتظر الأم إلى ابنتها فيخيل إليها أنها ستنام، ثم تنتظر فإذا هدوء متصل لا صوت ولا حركة، وإنما هو نفسٌ خفيفٌ شديد الخفة يتردّد بين شفتين مفتحتين قليلاً، ثم ينقطع هذا النفس وإذا الطفلة قد فارقت الحياة.

ماذا كانت علّتها؟ كيف ذهبّت بحياتها هذه العلة؟ الله وحده يعلم هذا.

وهنا يرتفع صياحٌ آخرٌ ويتصلُّ ويشتدُّ. وهنا يظهر اضطرابٌ آخر ويتصل ويشتد. ولكنه ليس صياح الطفلة ولا اضطرابها، وإنما هو صياح هذه الأمّ وقد رأت الموت، واضطرابها وقد أحسّت التكلُّ<sup>(١١١)</sup>. وإذا الشبان والصبيان قد فزعوا إلى أمّهم وسبقهم إليها الشيخ. وإذا هى فى جزع وهلع ينطق لسانها بألفاظ لا صلة بينها ويقطع الدمع صوتها تقطيعاً، وإذا هى تلطم خديها فى عنف متصل، وزوجها مائل أمامها لا ينطق لسانه بحرف وإنما تتهمر دموعه انهمازاً. وإذا الجارات والجيران قد سمعوا هذا الصياح فأقبلوا مسرعين. فأما الشيخ فينصرف إلى الرجال يتقبل عزاءهم فى قوة وجلد. وأما الشبان والصبيان فيتفرقون فى الدار، قد قست قلوب بعضهم فنام، ورقت قلوب بعضهم فسهر. وأما الأمّ ففيما هى فيه من جزع وهلع! أمامها ابنتها هادمة جامدة، تُؤلول<sup>(١١٢)</sup> وتخمش وجهها وتصك صدرها، ومن حولها بناتها وجاراتها يصنعن صنيعها يولولن ويخمشن الوجوه ويصككن الصدور حتى ينقضى الليل كله.

وما أشدُّ نُكْرَ هذه الساعةِ التى أقبل فيها بعضُ الناس واحتملوا الطفلة ومضوا بها إلى حيث لا تعود. كان ذلك اليوم يوم الأضحى، وكانت الدار قد هيئت للعيد. وكانت الضحايا قد أعدت. فيا له من يوم! ويا لها من ضحايا! ويا نكرها من ساعة حين عاد الشيخ إلى داره مع الظهر وقد وارى ابنته فى التراب!

(١٠٩) يخفت: يضعف ويسكن.

(١١٠) الأزمة: الشدة.

(١١١) التكل: الموت والهلاك، وفقدان الحبيب أو ولده.

(١١٢) الولولة: الإعوال والبكاء. الخمش: اللطم والضرب. والصك هنا: الضرب الشديد.

... منذ ذلك اليوم اتصلت الأواصر<sup>(١١٣)</sup> بين الحزن وبين هذه الأسرة. فما هي إلا أشهرٌ أشهرٌ حتى فقد الشيخ أباه الهرم. وما هي إلا أشهرٌ أخرى حتى فقدت أم الصبى أمها الفانية<sup>(١١٤)</sup>. وإنما هو حدادٌ<sup>(١١٥)</sup> متصلٌ وألم يقفو<sup>(١١٦)</sup> بعضه بعضًا، منه اللاذع ومنه الهادئ. حتى كان هذا اليوم المنكر الذى لم تعرف الأسرة يوماً مثله، والذى طبع حياتها بطابع من الحزن لم يفارقها، والذى ابيضَّ له شعر الأبوين جميعاً، والذى قضى على هذه الأم أن تلبس السواد إلى آخر أيامها، وألا تذوق للفرح طعماً، ولا تضحك إلا بكت إثر ضحكها، ولا تنام حتى تريق بعض الدموع، ولا تفيق من نومها حتى تريق دموعاً<sup>(١١٧)</sup> أخرى، ولا تطعم فاكهة حتى تطعم منها الفقراء والصبيان، ولا تبتسم لعيد، ولا تستقبل يوم سرور إلا وهي كارهة راغمة.

كان هذا اليوم يوم ٢١ أغسطس من سنة ١٩٠٢. وكان الصيف منكرًا في هذه السنة. وكان وباء الكوليرا قد هبط إلى مصر ففتك بأهلها فتكًا ذريعًا<sup>(١١٨)</sup>: دمر مدنًا وقُرى، ومحا أسرًا كاملة. وكان سيدنا قد أكثر من الحُجب وكتابة المخلفات، وكانت المدارس والكليات قد أفلتت، وكان الأطباء ورسُل مصلحة الصحة قد انبثوا<sup>(١١٩)</sup> فى الأرض ومعهم أدواتهم وخيامهم يحجزون فيها المرضى، وكان الهلع قد ملأ النفوس واستأثر بالقلوب، وكانت الحياة قد هانت على الناس، وكانت كل أسرة تتحدث بما أصاب الأسر الأخرى وتنتظر حظها من المصيبة. وكانت أم الصبى فى هلع مستمر، وكانت تسأل نفسها ألف مرة فى كل يوم بمن تنزل النازلة من أبنائها وبناتها! وكان لها ابن فى الثامنة عشرة جميل المنظر رائع الطلعة، نجيب ذكى القلب، وكان أنجب الأسرة وأذكاها وأرقها قلباً، وأصفاها طبعاً، وأبرها بأمه، وأرفها بأبيه، وأرفقها بصغار إخوته وأخواته، وكان مبتهاجاً أبداً. وكان قد ظفر بشهادة البكالوريا وانتسب إلى مدرسة الطب وأخذ

---

(١١٣) الأواصر هنا: العلائق والصلات.

(١١٤) الفانية: التى بلغت أرذل العمر.

(١١٥) حدثت المرأة تحدثت المرأة تحد (كضرب ونصر) حدًا وحدادًا: تركت الزينة لموت زوج أو حبيب. والمراد بالحداد هنا الحزن.

(١١٦) يقفو: يتبع.

(١١٧) الإراقة: الصب. يريد حينما تذرف دموعًا غزيرة.

(١١٨) ذريعًا: سريعًا فاشيًا.

(١١٩) انبثوا: انتشروا.

ينتظر آخر الصيف ليذهب إلى القاهرة. فلما كان هذا الوياء، اتصل بطبيب المدينة وأخذ يرافقه ويقول: إنه يتمرن على صناعته حتى كان يوم ٢٠ أغسطس.

أقبل الشاب آخر هذا اليوم كعادته باسمًا، فلاطف أمه وداعبها وهدأ من روعها وقال: لم تصب المدينة اليوم بأكثر من عشرين إصابة وقد أخذت وطأة الوياء تخف. ولكنه مع ذلك شكا من بعض الغثيان<sup>(١٢٠)</sup> وخرج إلى أبيه فجلس إليه وحدثه كعادته، ثم ذهب إلى أصحابه فرافقهم إلى حيث كان يذهب معهم في كل يوم عند شاطئ الإبراهيمية. فلما كان أول الليل عاد وقضى ساعة في ضحك وعبث مع إخوته. وفي هذه الليلة زعم لأهل البيت جميعًا أن في أكل الثوم وقاية من الكوليرا، وأكل الثوم وأخذ كبار إخوته وصغارهم بالأكل منه وحاول أن يُقنع أبويه بذلك فلم يوفق.

وكانت الدار هادئة مُغرقة في النوم كبارها وصغارها وحيوانها عندما انتصف الليل. ولكن صيحة غريبة ملأت هذا الجو الهادئ، فهبَّ<sup>(١٢١)</sup> لها القوم جميعا. فأما الشيخ وزوجته فكانا في هذا الدهليز المنبسط الذي تظله السماء يدعوان ابنهما باسمه. وأما الشبان من أهل الدار فكانوا يثبون من فراشهم مسرعين إلى حيث الصوت. وأما الصبيان فكانوا يجلسون يحكون أعينهم بأيديهم يحاولون أن يتبينوا في شيء من الهلع من أين يأتي الصوت وماذا كانت الحركة الغريبة!

وكان مصدر هذا كله صوت هذا الفتى وهو يعالج القيء، وكان الفتى قد قضى ساعة أو ساعتين يخرج من الحجرة على أطراف قدميه ويمضى إلى الخلاء ليقىء مجتهدا ألا يوقف أحدا. حتى إذا بلغت العلة منه أقصاها لم يملك نفسه ولم يستطع أن يقىء في لطف، فسمع أبواه هذه الحشجة ففزعا لها، وفزع معهما أهل الدار جميعا.

إذن فقد أصيب الشاب ووجد الوياء طريقه إلى الدار، وعرفت أم الفتى بأى أبنائها تنزل النازلة. لقد كان الشيخ في تلك الليلة خليقا بالإعجاب حقا. كان هادئا رزينا مروعا مع ذلك، ولكنه يملك نفسه وكان في صوته شيء يدل على أن قلبه مفطور، وعلى أنه مع ذلك جلد مستعد لاحتمال النازلة. أوى ابنه إلى حجرته وأمر بالفصل بينه وبين بقية إخوته، وخرج مسرعا فدعا جارين من جيرانه، وما هي إلا ساعة حتى عاد ومعه الطبيب.

(١٢٠) غث النفس غثيًا وغثيًا: خبثت واضطربت حتى تكاد تتقيأ.

(١٢١) هب القوم: انتبهوا من النوم.

وفى أثناء ذلك كانت أمّ الفتى مروّعة جلدة مؤمنة تعنى بابنها، حتى إذا أمهله القىء خرجت إلى الدهليز فرفعت يدها ووجهها إلى السماء وفنيت فى الدعاء والصلاة، حتى تسمع حشجة القىء فتسرع إلى ابنها تسنده إلى صدرها وتأخذ رأسه بين يديها، ولسانها مع ذلك لا يكف عن الدعاء والابتهاال.

ولم تستطع أن تحول بين الصبيان والشبان وبين المريض، فملأوا عليه الحجرة وأحاطوا به واجمين، وهو يداعب أمّه كلما أمهله القىء، ويعبث مع صغار إخوته، حتى إذا جاء الطبيب فوصف ما وصف وأمر بما أمر وانصرف على أن يعود مع الصبح. لزمّت أم الفتى حجرة ابنها وجلس الشيخ قريبا من هذه الحجرة واجما لا يدعو ولا يصلى ولا يجيب أحداً من الذين كانوا يتحدثون إليه.

وأقبل الصبح بعد لآى، وأخذ الفتى يشكو ألما فى ساقيه. وأقبلت إليه أخواته يدلكن له ساقيه، وهو يشكو صائحا مرة كاتما ألمه مرة أخرى، والقىء يجهدده ويخلع فى الوقت نفسه قلب أبويه. وقضت الأسرة كلها صباحا لم تقض مثله قط: صباحا واجما مظلما فيه شيء مفزع مروع. فأما خارج الدار فكان يزدحم بالناس أقبلوا إلى الشيخ يواسونه. وأما داخل الدار فكان مزدحما بالناس أقبلن يواسين أمّ الفتى. وكان الشيخ وزوجه عن أولئك وهؤلاء فى شغل. وكان الطبيب يتردد بين ساعة وساعة. وكان الفتى قد طلب أن يبرق إلى أخيه الأزهرى فى القاهرة وإلى عمه فى أعلى الإقليم. وكان يطلب الساعة من حين إلى حين ينظر فيها كأنه يتعجل الوقت، وكأنه يشفق أن يموت دون أن يرى أخاه الشاب وعمه الشيخ. يا لها من ساعة منكرة، هذه الساعة الثالثة من الخميس ٢١ أغسطس سنة ١٩٠٢.

انصرف الطبيب من الحجرة يائسا، وكأنه قد أسرّ إلى رجلين من أقرب أصحاب الشيخ إليه بأن الفتى يحتضر، فأقبل الرجلان حتى دخلا الحجرة على الفتى ومعه أمه. ظهرت فى هذا اليوم لأول مرة فى حياتها أمام الرجال.



والفتى فى سرير يتَّصَوَّر<sup>(١٢٢)</sup>: يقف ثم يلقى بنفسه، ثم يجلس ثم يطلب الساعة، ثم يعالج القىء، وأمه واجمة، والرجلان يواسيانه وهو يجيبهما: لست خيراً من النبى. أليس النبى قد مات! ويدعو أباه يريد أن يواسيه فلا يجيبه الشيخ. وهو يقوم ويقعد ويُلقى نَفْسَه فى السرير مرَّ ومن دون السرير مرة أخرى، وصبينا منزو فى ناحية من هذه الحجرة، واجم كئيب دهش يُمَرِّق الحُزْنَ قلبه تمزيقاً.

ثم ألقى نفسه على السرير وعجز عن الحركة، وأخذ يئن أنيناً يخفت من حين إلى حين. وكان صوت هذا الأئين يبعد شيئاً فشيئاً. وإن الصبى لينسى كل شىء قبل أن ينسى هذه الأئنة الأخيرة التى أرسلها الفتى نحيلة ضئيلة طويلة ثم سكت. فى هذه اللحظة نهضت أم الفتى وقد انتهى صبرها ووهى<sup>(١٢٣)</sup>

صورة ص ١٣٣

جلدها، فلم تكد تقف حتى هَوَّت<sup>(١٢٤)</sup> أو كادت، وأسندها الرجلان فتمالكت نفسها وخرجت من الحجرة مطرقة ساعية فى هدوء، حتى إذا جاوزتها انبعثت من صدرها شكاة، لا يذكرها الصبى إلا انخلع لها قلبه انخلاء. واضطرب الفتى قليلاً ومزَّت فى جسمه رعدة تبعها سكوت الموت. وأقبل الرجلان إليه فهياه وعصباه وألقيا على وجهه لثاماً، وخرجا إلى الشيخ. ثم ذكرا أن الصبى منزو فى ناحية من نواحي الحجرة، فعاد أحدهما إليه فجذبه جذبا وهو ذاهل حتى انتهى به إلى مكان بين الناس فوضعه فيه كما يوضع الشىء.

وما هى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى هبى الفتى للدفن وخرج الرجال به على أعناقهم.

فيا للقضاء! ما كادوا يبلغون به باب الدار حتى كان أول من لقى النعش هذا العم الشيخ الذى كان الفتى يتمهل الموت دقائق ليراه.

من ذلك اليوم استقر الحزن العميق فى هذه الدار وأصبح إظهار الابتهاج أو السرور بأى حادث من الحوادث شيئاً ينبغى أن يتجنبه الشبان والأطفال جميعاً.

(١٢٢) يتصور: يتلوى.

(١٢٣) وهى: ضعف.

(١٢٤) هوى: سقط.

من ذلك اليوم تعود الشيخ ألا يجلس إلى غدائه ولا إلى عشائه حتى يذكر ابنه وبيكيه ساعة أو بعض ساعة، وأمامه امرأته تعينه على البكاء، ومن حوله أبنائه وبناته يحاولون تعزية هذين الأبوين فلا يبلغون منهما شيئاً فيجهشون جميعاً بالبكاء (١٢٥).

من ذلك اليوم تعودت هذه الأسرة أن تعبر النيل إلى مقر الموتى من حين إلى حين، وكانت من قبل ذلك تعيب الذين يزورون الموتى.

ومن ذلك اليوم تغيرت نفسية صبينا تغيراً تاماً. عرف الله حقاً. وحرص على أن يتقرب إليه بكل ألوان التقريب: بالصدقة حيناً وبالصلاة حيناً آخر وبتلاوة القرآن مرة ثالثة. ولقد شهد الله ما كان يدفعه إلى ذلك خوف ولا إشفاق ولا إيثار للحياة، ولكنه كان يعلم أن أخاه الشاب كان من أبناء المدارس، وكان يقصر في أداء واجباته الدينية، فكان الصبي يأتي ما يأتي من ضروب العبادة يريد أن يحط عن أخيه بعض السيئات. كان أخوه في الثامنة عشرة من عمره، وكان الصبي قد سمع من الشيوخ أن الصلاة والصوم فرض على الإنسان متى بلغ الخامسة عشرة. فقدّر الصبي في نفسه أن أخاه مدين لله بالصوم والصلاة ثلاثة أعوام كاملة، وفرض الصبي على نفسه ليصلين الخمس في كل يوم مرتين: مرة لنفسه ومرة لأخيه! وليصوم من السنة شهرين: شهراً لنفسه وشهراً لأخيه، وليكتمن ذلك عن أهله جميعاً وليجعلن ذلك عهداً بينه وبين الله خاصة، وليطعمن فقيراً أو يتيماً مما تصل إليه يده من طعام أو فاكهة قبل أن يأخذ بحظه منه. وشهد الله لقد وفي الصبي بهذا العهد شهراً وما غير سيرته هذه إلا حين ذهب إلى الأزهر.

من ذلك اليوم عرف الصبي أرق الليل. فكم أنفق سواد الليل كاملاً يفكر في أخيه أو يقرأ سورة الإخلاص آلاف المرات ثم يهب ذلك كله لأخيه، أو ينظم شعراً على نحو هذا الشعر الذي كان يقرؤه في كتب القصص يذكر فيه حزنه وألمه لفقد أخيه، معنياً بالألا يفرغ من قصيدة حتى يصلى في آخرها على النبي واهبا ثواب هذه الصلاة لأخيه.

نعم! ومن ذلك اليوم عرف الصبي الأحلام المروعة، فقد كانت علة أخيه تتمثل له في كل ليلة، واستمرت الحال كذلك أعواماً. ثم تقدمت به السن وعمل فيه الأزهر عمله، فأخذت علة أخيه تتمثل له من حين إلى حين، وأصبح فتى ورجلاً، وتقلبت به أطوار الحياة، وإنه لعلى ما هو عليه من وفاء لهذا الأخ، يذكره ويراه فيما يرى النائم مرة في الأسبوع على أقل تقدير.

---

(١٢٥) أجهش بالبكاء: هم به وتهياً له.

ولقد تعزى عن هذا الفتى إخوته وأخواته، ونسيه من نسيه من أصحابه وأترابه، وأخذت  
ذكره لا تزور أباه الشيخ إلا لماماً، ولكن اثنين يذكرانه أبداً، وسيذكرانه أبداً أول الليل من كل  
يوم، هما: أمه وهذا الصبي.

"أما فى هذه المرّة فستذهب إلى القاهرة مع أخيك، وستُصيحُ مجاورًا، وستجتهد فى طلب العلم، وأنا أرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضيا وأراك من علماء الأزهر، قد جلست إلى أحد أعمدته ومن حولك حلقةً واسعةً بعيدةً المدى."

قال الشيخ ذلك لابنه آخر النهار فى يوم من خريف سنة ١٩٠٢، وسمع الصبى هذا الكلام فلم يُصدّق ولم يكذب، ولكنه آثر (١٢٦) أن ينتظر تصديق الأيام أو تكذيبها له. فكثيرا ما قال له أبوه مثل هذا الكلام، وكثيرا ما وعده أخوه الأزهرى مثل هذا الوعد، ثم سافر الأزهرى إلى القاهرة، ولبث الصبى فى المدينة يتردد بين البيت والكتّاب والمحكمة ومجالس الشيوخ.

وفى الحق أنه لم يفهم لماذا صدّق وعد أبيه فى هذه السنة، فقد أخبر الصبى ذات يوم أنه مسافر بعد أيام. وأقبل يوم الخميس، فإذا الصبى يرى نفسه يتأهب للسفر حقًا، وإذا هو يرى نفسه فى المحطة ولما تشرق الشمس. وهو يرى نفسه جالسًا القرفصاء منكس الرأس كئيبًا محزونًا، ويسمع أكبر إخوته ينهره فى لطف قائلاً له:

لا تتكس رأسك هكذا، ولا تأخذ هذا الوجه الحزين فتحزن أخاك. ويسمع أباه يشجعه فى لطف قائلاً: ماذا يحزنك؟ أأنت رجلاً؟ أأنت قادراً على أن تفارق أمك؟ أم أنت تريد أن تلعب؟ ألم يكفك هذا اللعب الطويل؟

شهد الله ما كان الصبى حزينا لفراق أمه، وما كان الصبى حزينا لأنه لن يلعب. إنما كان يذكر هذا الذى ينام هنالك من وراء النيل. كان يذكره، وكان يذكر أنه كثيرا ما فكر فى أنه سيكون معهما فى القاهرة تلميذا فى مدرسة الطب. كان يذكر هذا كله فيحزن، ولكنه لم يقل شيئا ولم يظهر حزنا، وإنما تكلف الابتسام. ولو قد أرسل نفسه مع طبيعتها لبكى ولأبكى من حوله أباه وأخويه.

وانطلق القطار ومضت ساعات ورأى صاحبنا نفسه فى القاهرة بين جماعة من المجاورين قد أقبلوا إلى أخيه فحيوه وأكلوا ما كان قد احتمله لهم من طعام.



انقضى هذا اليوم. وكان يوم الجمعة، وإذا الصبي يرى نفسه فى الأزهر للصلاة. وإذا هو يسمع الخطيب شيخا ضخم الصوت عاليه، فخم الرءاءات والقافات، لا فرق بينه وبين خطيب المدينة إلا فى هذا. فأما الخطبة فهى ما كان تعود أن يسمع فى المدينة. وأما الحديث فهو هو. وأما النعت فهو هو. وأما الصلاة فهى هى ليست أطول من صلاة المدينة ولا أقصر.

وعاد الصبى إلى بيته أو قل إلى حجرة أخيه خائب الظن بعض الشيء. وسأله أخوه: ما رأيك فى تجويد القرآن ودرس القراءات؟ قال الصبى: لست فى حاجة إلى شىء من هذا، فأما التجويد فأنا أتقنه، وأما القراءات فلست فى حاجة إليها، وهل درست أنت القراءات؟ أليس يكفينى أن أكون مثلك؟ إنما أنا فى حاجة إلى العلم، أريد أن أدرس الفقه والنحو والمنطق والتوحيد. قال أخوه: حسَبُك! يكفى أن تدرس الفقه والنحو فى هذه السنة.

وكان يوم السبت، فاستيقظ الصبى مع الفجر، وتوضأ وصلّى، ونهض أخوه فتوضأ وصلّى كذلك، ثم قال له: ستذهب معى الآن إلى مسجد كذا، وستحضر درسا ليس لك وإنما هو لى، حتى إذا فرغنا من هذا الدرس ذهبت بك إلى الأزهر فالتمست لك شيخا من أصحابنا تختلف إليه وتأخذ عنه مبادئ العلم. قال الصبى: وما هذا الدرس الذى سأحضره؟ قال أخوه ضاحكا: هو درس الفقه وهو ابن عابدين على الدر. قال ذلك يملأ به فمه. قال الصبى: ومن الشيخ؟ قال أخوه: هو الشيخ.... وكان الصبى قد سمع اسم الشيخ.. ألف مرة ومرة. فقد كان أبوه يذكر هذا الاسم ويفتخر بأنه عرف الشيخ حين كان قاضيا للإقليم. وكانت أمّه تذكر هذا الاسم، وتذكر أنها عرفت امرأته فتاة هوجاء جلفة، تتكلف زى أهل المدينة وما هى من زى أهل المدن فى شىء، وكان أبو الصبى يسأل ابنه الأزهرى كلما عاد من القاهرة عن الشيخ ودروسه وعدد طلابه.

وكان ابنه الأزهرى يحدثه عن الشيخ ومكانته فى المحكمة العليا وحلقته التى تعد بالمئات. وكان أبو الصبى يلح على ابنه الأزهرى فى أن يقرأ كما كان يقرأ الشيخ، فيحاول الفتى تقليده فيضحك أبوه فى إعجاب وإكبار. وكان أبو الصبى يسأل ابنه: أيعرفك الشيخ؟ فيجيب الفتى: وكيف لا! وأنا ورفاقى من أخص تلاميذه وأثرهم<sup>(١٢٧)</sup> عنده، نحضر درسه العام ثم نحضر عليه درسا خاصا فى بيته، وكثيرا ما نتغدى لنعمل معه بعد ذلك فى كتبه الكثيرة التى يؤلفها. ثم يمضى الفتى فى وصف بيت الشيخ وحجرة استقباله ودار كتبه، وأبوه يسمع ذلك معجبا، حتى إذا خرج إلى أصحابه قص عليهم ما سمع من ابنه فى شىء من التيه والفخار.

(١٢٧) آثرهم عنده: أكرمهم وأفضلهم.

كان الصبى إذن يعرف الشيخ، وكان سعيداً بالذهاب إلى حلقتة والاستماع له. وكم كان مبتهجا حين خلع نعليه عند باب المسجد ومشى على الحصير ثم على الرخام ثم على هذا البساط الرقيق الذى فرش به المسجد. وكم كان سعيداً حين أخذ مكانه فى الحلقة على هذا البساط إلى جانب عمود من الرخام، لمسّه فأحب ملاسته ونعومته، وأطال التفكير فى قول أبيه: إنى لأرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضياً وأراك صاحب عمود فى الأزهر. وفيما هو يفكر فى هذا ويتمنى أن يمس أعمدة الأزهر ليرى أهى كأعمدة هذا المسجد، وللطلاب من حوله دوى غريب، أحس أن هذا الدوى يخفت ثم ينقطع، وغمزه أخوه بيده قائلاً فى صوت خافت: لقد أقبل الشيخ. اجتمعت شخصية الصبى كلها حينئذ فى أذنيه. وأنصت. ماذا يسمع؟ يسمع صوتاً خافتاً هادئاً رزيناً ملؤه شىء قل إنه الكبر، أو قل إنه الجلال، أو قل إنه ما شئت، ولكنه شىء غريب لم يحبه الصبى. ولبث الصبى دقائق لا يميز مما يقول الشيخ حرفاً، حتى إذا تعودت أذناه صوت الشيخ وصدى المكان سمع وتبين وفهم. وقد أقسم لى بعد ذلك أنه احتقر العلم منذ ذلك اليوم. سمع الشيخ يقول: (ولو قال لها أنت طلاق أو أنت ظلام أو أنت طلال أو أنت طلاة، وقع الطلاق ولا عبرة بتغيير اللفظ). يقول ذلك متغنياً به مرتلاً له ترتيلاً فى صوت لا يخلو من حشجة، ولكن صاحبه يحتال أن يجعله عذباً، ثم يختم هذا الغناء بهذه الكلمة التى أعادها طوال الدرس: (فافهم يا أدع). وأخذ الصبى يسأل نفسه عن (الأدع) هذا ما هو؟ حتى إذا انصرف عن الدرس سأل أخاه: ما الأدع؟ ففقهه أخوه وقال: الأدع الجدع فى لغة الشيخ.

ومضى به بعد ذلك إلى الأزهر فقدمه إلى أستاذه الذى علمه مبادئ الفقه والنحو سنة

كاملة.

إنك يا ابنتي لساذجةً سليمةً القلب طيبةً النَّفس. أنت في التاسعة من عُمرِكَ، في هذه السنّ التي يُعجَبُ فيها الأطفال بآبائهم وأمّهاتهم ويتخذونهم مثلاً علياً في الحياة: يتأثرونهم (١٢٨) في القول والعمل، ويحاولون أن يكونوا مثلهم في كل شيء، ويفخرون بهم إذا تحدثوا إلى أقرانهم أثناء اللعب، ويخيل إليهم أنهم كانوا أثناء طفولتهم كما هم الآن مثلاً علياً يصلحون أن يكونوا قدوة حسنة وأسوة صالحة.

أليس الأمر كما أقول؟ ألسنت ترين أن أباك خير الرجال وأكرمهم؟ ألسنت ترين أنه قد كان كذلك خير الأطفال وأنبلهم؟ ألسنت مقتنعة أنه كان يعيش كما تعيشين أو خيراً مما تعيشين؟ ألسنت تحبين أن تعيشي الآن كما كان يعيش أبوك حين كان في الثامنة من عمره؟ ومع ذلك فإن أباك يبذل من الجهد ما يملك، ويتكاف من المشقة ما يطيق وما لا يطيق، ليجنبك حياته حين كان صبيّاً.

لقد عرفتة يا ابنتي في هذا الطور من أطوار حياته. ولو أنى حدثتك ما كان عليه حينئذٍ لكذبت كثيراً من ظنك، ولخبيت كثيراً من أملك، ولفتحت إلى قلبك الساذج ونفسك الحلوة باباً من أبواب الحزن؛ حرام أن يفتح إليهما وأنت في هذا الطور اللذيذ من الحياة. ولكنى لن أحدثك بشيء مما كان عليه أبوك في ذلك الطور الآن. لن أحدثك بشيء من هذا حتى تتقدم بك السن قليلاً فتستطيعين أن تقرئي وتفهمي وتحكمي، ويومئذ تستطيعين أن تعرفي أن أباك أحبك حقاً، وجدّ في إسعادك حقاً، ووفق بعض التوفيق إلى أن يجنبك طفولته وصباه.

نعم يا ابنتي لقد عرفتُ أباك في هذا الطور من حياته. وإنى لأعرف أن في قلبك رقةً وليئاً، وإنى لأخشى لو حدثتك بما عرفت من أمر أبيك حينئذٍ أن يملكك الإشفاق وتأخذك الرأفة فتجهشى بالبكاء.

لقد رأيتك ذات يوم جالسةً على حجر أبيك وهو يقص عليك قصة (أوديب ملكاً) وقد خرج من قصره بعد أن فقأ عينيه لا يدرى كيف يسير، وأقبلت ابنته (أنتيجون) فقادته وأرشدته. رأيتك ذلك اليوم تسمعين هذه القصة مبتهجةً من أولها، ثم أخذ لونك يتغير قليلاً قليلاً، وأخذت جبهتك السمحة تزدُّ (١٢٩) شيئاً فشيئاً، وما هي إلا أن أجهشت بالبكاء وانكبتت على أبيك لثماً

(١٢٨) تأثره: تبع أثره.

(١٢٩) ترديد: تتغير وتعبس.

وتقبيلاً، وأقبلت أمك فانتزعتك من بين ذراعيه، وما زالت بك حتى هدأ روعك، وفهمت أمك وفهم أبوك وفهمت أنا أيضاً أنك إنما بكيت لأنك رأيت أوديب الملك كأبيك مكفوفاً لا يبصر ولا يستطيع أن يهتدى وحده. فبكيت لأبيك كما بكيت (لأوديب).

نعم! وإنى لأعرف أن فيك عبث الأطفال وميلهم إلى اللهو والضحك وشيئاً من قسوتهم، وإنى لأخشى يا ابنتى إن حدثتكم بما كان عليه أبوك فى بعض أطوار صباه أن تضحكى منه قاسية لاهية، وما أحب أن يضحك طفل من أبيه، وما أحب أن يلهو به أو يقسو عليه. ومع ذلك فقد عرفت أباك فى طور من أطوار حياته أستطيع أن أحدثك به دون أن أثير فى نفسك حزناً، ودون أن أغريك بالضحك أو اللهو.

عرفته فى الثالثة عشرة من عمره حين أرسل إلى القاهرة ليختلف إلى دروس العلم فى الأزهر؛ إن كان فى ذلك الوقت لصبى جدٍ وَعَمَلٍ<sup>(١٣٠)</sup>. كان نحيفاً شاحب اللون مهمل الزى أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى، تقتمحه<sup>(١٣١)</sup> العين اقتحاماً فى عباءته القذرة وطاقيته التى استحال بياضها إلى سواد قاتم، وفى هذا القميص الذى يبين أثناء عباءته وقد اتخذ ألواناً مختلفة من كثرة ما سقط عليه من الطعام، ومن نعليه الباليين المرقتين. تقتمحه العين فى هذا كله، ولكنها تبتسم له حين تراه على ما هو عليه من حال رثة<sup>(١٣٢)</sup> وبصر مكفوف، واضح الجبين مبتسم الثغر مسرعاً مع قائده إلى الأزهر، لا تختلف خطاه ولا يتردد فى مشيته، ولا تظهر على وجهه هذه الظلمة التى تغطى<sup>(١٣٣)</sup> عادة وجوه المكوفين. تقتمحه العين ولكنها تبتسم له وتلحظه فى شيء من الرفق، حين تراه فى حلقة الدرس مُصَغِيًّا<sup>(١٣٤)</sup> كله إلى الشيخ يلتهم كلامه التهاماً،

---

(١٣٠) أى إنه كان ذلك الوقت صبى جد وعمل. فى "إن" هى المؤكدة وقد خففت بالتسكين. وإذا خففت بطل عملها ولكن معناها وهو التوكيد باق، وتثبت لام فى الجملة بعدها لتدل على ذلك. ومن ذلك فى القرآن "إن كادوا ليفتنوك عن الذى أوحينا إليك" أى إنهم كادوا يفتنوك.

(١٣١) تقتمه العين: تحتقره وتزدرجه.

(١٣٢) حال رثة: سخيفة.

(١٣٣) تغطى: تغطى.

(١٣٤) مصغياً: مميلاً أذنيه للاستماع.

مبتسمًا مع ذلك لا مُتألمًا ولا مُتبرمًا<sup>(١٣٥)</sup> ولا مظهرًا ميلًا إلى لهو، على حين يلهو الصبيان من حوله أو يشرئبون<sup>(١٣٦)</sup> إلى اللهو.

عرفته يا ابنتى فى هذا الطور، وكم أحبُّ لو تعرفينه كما عرفته. إذا تُقدِّرين ما بينك وبينه من فرق، ولكن أنى لك هذا وأنت فى التاسعة من عمرك ترين الحياة كلها نعيمًا وصفوًا.

عرفته يُنفق اليومَ والأسبوع والشهر والسنة لا يأكل إلا لوناً واحداً، يأخذ منه حظه فى الصباح ويأخذ منه حظه فى المساء، لا شاكياً ولا متبرماً ولا متجلداً، ولا مفكراً فى أن حاله خليفة بالشكوى. ولو أخذت يا ابنتى من هذا اللون حظاً قليلاً فى يوم واحد لأشفقت أمك ولقدمت إليك قدحاً من الماء المعدني، ولانتظرت أن تدعو الطبيب.

لقد كان أبوك ينفق الأسبوع والشهر لا يعيش إلا على خبز الأزهر، وويل للأزهريين من خبز الأزهر؛ إن كانوا<sup>(١٣٧)</sup> ليجدون فيه ضرورياً من القش وألواناً من الحصى وفنوناً من الحشرات.

وكان يُنفق الأسبوع والشهر والأشهر لا يغمس هذا الخبز إلا فى العسل الأسود، وأنت لا تعرفين العسل الأسود، وخير لك ألا تعرفيه.

كذلك كان يعيش أبوك جاداً مبتسمًا للحياة والدرس، محروماً لا يكاد يشعر بالحرمان. حتى إذا انقضت السنة وعاد إلى أبويه وأقبلا عليه يسألانه كيف يأكل؟ وكيف يعيش؟ أخذ ينظم لهما الأكاذيب كما تعود أن ينظم لك القصص، فيحدثهما بحياة يحياها كلها رغد ونعيم. وما كان يدفعه إلى هذا الكذب حب الكذب. إنما كان يرفق بهذين الشيخين ويكره أن ينبئهما بما هو فيه من حرمان، وكان يرفق بأخيه الأزهري، ويكره أن يعلم أبواه أنه يستأثر دونه بقليل من اللين. كذلك كانت حياة أبيك فى الثالثة عشرة من عمره.

فإن سألتنى كيف انتهى إلى حيث هو الآن؟ وكيف أصبح شكله مقبولاً لا تقنحمه العين ولا تزدرية؟ وكيف استطاع أن يهيب لك ولأخيك ما أنتما فيه من حياة راضية؟ وكيف استطاع أن يثير فى نفوس كثير من الناس ما يثير من حسد وحقد وضغينة، وأن يثير فى نفوس ناس آخرين

---

(١٣٥) متبرماً: متضجراً.

(١٣٦) اشرب: رفع رأسه ومد عنقه لينظر. ويعنى هنا يتطلعون.

(١٣٧) إن، هى المؤكدة المخففة. أى إنهم كانوا يجدون...

ما يثير من رضا عنه وإكرام له وتشجيع؟ إن سألت كيف انتقل من تلك الحال إلى هذه الحال، فإستطيع أن أجيبك! وإنما هناك شخص آخر هو الذى يستطيع هذا الجواب، فسأليه يُنبئك.

أتعرفينه؟ انظرى إليه! هو هذا الملك القائم الذى يحنو على سريرك إذا أمسيت لتستقبلى الليل فى هدوء ونوم لذيذ، ويحنو على سريرك إذا أصبحت لتستقبلى النهار فى سرور وابتهاج. أأنت مدينة لهذا الملك بما أنت فيه من هدوء الليل وبهجة النهار!؟

لقد حنا يا ابنتى هذا الملك على أبيك، فبدله من البؤس نعيماً، ومن اليأس أملاً، ومن الفقر غنى، ومن الشقاء سعادةً وشفواً.

ليس دينُ أبيك لهذا الملك بأقل من دينك. فلتعاوننا يا ابنتى على أداء هذا الدين. وما أنتما ببالغين من ذلك بعض ما تريدان.